خلف أحمد خلف

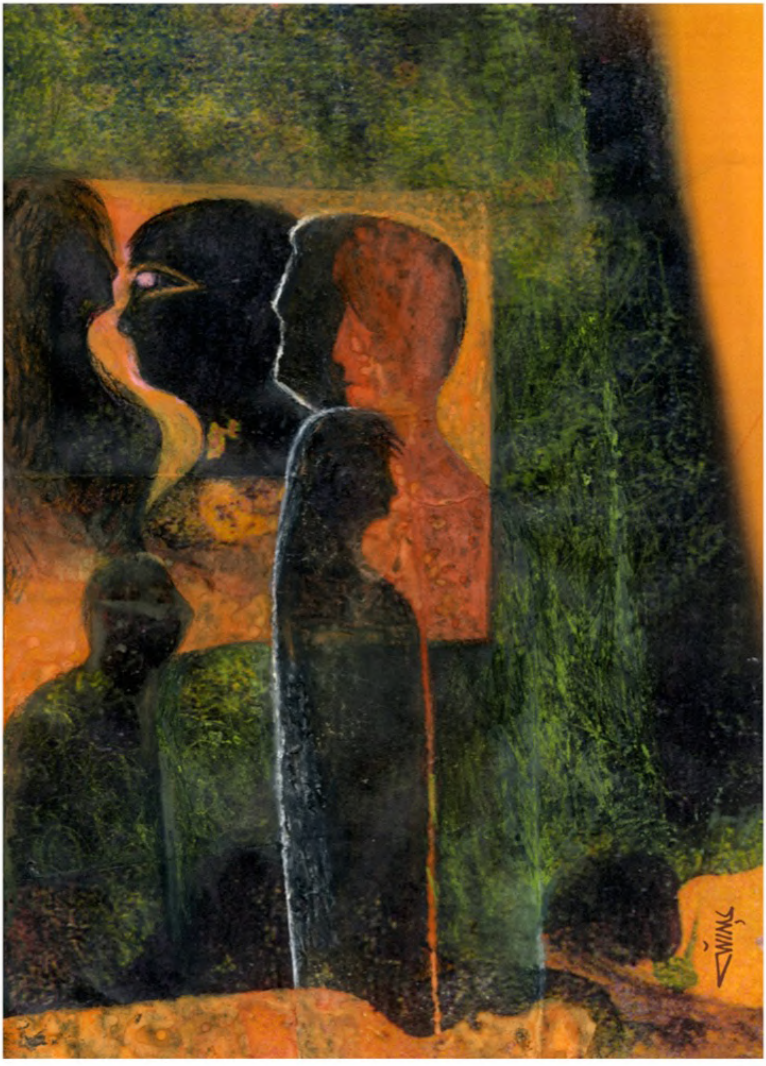

أقرب من صحوة

مجموعة قصصية

أقرب من صحوة

مجموعة قصصية

عنوان الكتاب: أقرب من صحوة - مجموعة قصصية
الكاتب: خلف أحمد خلف - قاص من البحرين
تصميم الغلاف والخط الفنان البحريني: عبدالله يوسف
الطبعة : الأولى 2019 م
رقم الإيداع بإدارة المكتبات العامة: /د.ع /2019
رقم الناشر الدولي : 978-
عدد الصفحات : 117
جميع الحقوق محفوظة

Titel:
Writer : Khalaf Ahmed Khalaf
First Edition 2019
L.D / 2019
ISBN 978-
No. of Pages : 117

All Rights Reserved

وزارة شؤون الإعلام
Ministry of
Information Affairs

إدارة وسائل الإعلام المطبعة الحكومية
Media Administration - Government Printing Press

هاتف : Tel: (+973) 17871788

فاكس : Fax: (+973) 17689066

مملكة البحرين Kingdom of Bahrain

البريد الالكتروني: E-mail: gpp@iaa.gov.bh

خلف أحمد خلف

أقرب من صحوة

مجموعة قصصية

2019

خمسون عاما خلفا در، أماما انطلق

قبل خمسين عاما من هذه اللحظة وبالتحديد في 1969، تواشجت أقلام ثلة من مبدعي هذه الأرض الولود على ارتكاب أجمل الجرائر بإنشاء هذا الكيان الذي بلغ بصوت الأدب العربي في البحرين آفاق العالم العربي وما عداه.

وها قد أنجز هذا الكيان صموده عبر تقلبات الزمن الكثيرة ليبقى رافعة إبداعية تشرف على ضفاف هذا الخليج بصوت (النهام) المعاصر، نعني الأديب، وهو يدوي بصيحة (اليامال) الحديثة، نعني "الكلمة من اجل الانسان"، في سديم الوجود، اما وقد فعل ذلك، فلا أقل من أن يفتتح خمسينيته الاخرى بهذا المشروع الكتابي الطموح.

أسرة الأدباء والكتاب وبدون الغرق كثيرا في نعمة النوستالجيا، حسنا تفعل اليوم وهي تحتفي بماضيها العريق، عبر الالتفات إلى غدها المشرق.

خمسون عاما لم تترجم الأسرة احتفاءها بها فقط في استعادة دفء الماضي ووهجه وحميميته ولكن أيضا في النزوع إلى فضاء الغد المنظور ولنقل ما بعد المنظور.

خمسون عاما، لنأمل معا ألا يقل ما ستمطرنا به عن خمسين

كتابـا، وقـد انفتـح بـاب الكتابـة مشـرعا لتتبنـى أسـرة الأدبـاء والكتـاب طباعـة مـا تخطـه اقـلام أعضائهـا شـعرا وسـردا ونقدا وتوثيقـا، ولا حـدود اليـوم غيـر السـماء المفتوحـة.

هـذه المجموعـة مـن الإصـدارات والتـي سـتحمل شـعار الخمسـينية، هـي مـا تفتتـح بـه أسـرة الأدبـاء والكتـاب العقـد الثالـث مـن الألفيـة الثالثـة، وعبـر اتفـاق طويـل الأمـد مـع دار نشـر فتيـة واعـدة هـي (دار تدويـن)، ليكـون قراءنـا علـى موعـد مـع وجبـة فاخـرة مـن لذائـذ الأدب والنقـد والفكـر.

ليتـردد فـي جنبـات الأفـق الكبيـر صـوت إلـه المـاء والخصوبـة (إنكـي) وهـو يصـدر نبوءتـه الهائلـة : "فلتصبـح دلمـون مينـاء العالـم كلـه"

أسرة الادباء والكتاب

مملكة البحرين

أقرب من صحوة.. أبعد عن نزوة

- 1 -

في ظهيرة يوم من فبراير 2011

ظلت أم عبد الله ممسكة بكأس الماء فيما راح أبو ناصر في اغفاءة امتدت لأكثر من نصف ساعة، هكذا أصبحت حالته بعد تدهور صحته في الأيام الأخيرة، وحين فتح عينيه هاله أن تبقى زوجته الصبور منتظرة كل هذا الوقت دون أن تحاول انتشاله من غفوته، فما كان منه، وقد اجتاحته حالة نادرة من العاطفة تجاهها، إلا أن أقسم لها بأن يلبي أي طلب تطلبه، تعبيرا عن امتنانه لهذا التفاني والمحبة الآسرة، مشددا عليها أن تطلب الآن وفي الحال...

تطلعت إليه مطولا متفرسة في وجهه كأنما تراه للمرة الأولى بعد معاشرة دامت زهاء أربعين عاما، أثمرت أبنين هما الآن متزوجان مستقلان بحياتهما، وابنتين كبراهما تزوجت فيما الثانية أصغر ذريتها والأقرب إلى نفسها لاتزال تدرس في الجامعة، وأحفادا يملأون البيت ضجيجا في زياراتهم الأسبوعية كل يوم جمعة.

تفرست في وجهه كما لو كانت تستيقظ هي الأخرى من اغفاءة طويلة ممتدة، لتقول بصوتها الهامس الذي اعتاده:

ـ أريد شيئا واحدا لا غير.

قال لها بلهفة الممتن المحب:

ـ وأنا وعدتك بأن أنفذه على الفور مهما يكن، ومهما يكلفني..

صمتت لحظة تستجمع رباط جأشها الذي تراخى بعيدا في أغوار سنين سحيقة، لتقول وبذات الصوت الهامس، لكن بلهجة حاسمة:

ـ أريد الطلاق.

للوهلة الأولى ندت عنه شهقة كمن تلقى ضربة قوية على ظهره، وبدا غير مستوعب لما سمع، فتح فاه على سعته وقد صعقته الدهشة، ظل يحدق فيها صامتا يلملم شتات ما بعثرته المفاجأة، ليردد قولها دونما تمعن:

ـ أريد الطلاق!!.

أجابت وهي تستشعر قوة مفاجئة تجتاحها في مواجهة ما تبدى لها من ضعف هذا الرجل أمامها، ثمة موجة تدفعها لأن تعيد وبذات الصوت الهامس تأكيد طلبها الذي بوغتت به هي ذاتها:

ـ أجل، أريد الطلاق، لقد اكتفيت منك..

لم يستوعب ما كررت قوله، كل هذا الحب الذي أحاطته به، كل هذه الرعاية والتفاني الذي لطالما حسده عليه المحيطون به، من أهل وأقارب ومعارف، ما الذي تغير وتبدل وهو الذي لم يسيء إليها، على الأقل في سنواته الأخيرة، التي ازداد فيها ضعفه وبدأت قواه تخور، وتأخذه الغفوات في رحلات تقصر وتطول لا يملك لها دفعا، فيما هي تجلس عند أقدامه تحرسه كما كانت على الدوام، حاضرة صابرة، لا تبدي تبرما ولا يصدر عنها تأففا.

ظل ساكنا يتطلع إليها، مبهوتا يحاول تخفيف ارتجافات يديه اللاإرادية التي أصبحت تلازمه منذ سنوات، دونما جدوى، يتطلع إليها وهي قابعة أمامه ممسكة بالكأس الفارغة، تتفرس فيه بنظرات لم يألفها، نظرات هادئة لكنها تشتعل تصميما على تلقى رده الآن وفي الحال، طال صمته فيما بدأ ارتعاش يديه يصدر صوتا وهما تتداعيان في حضنه إثر احتكاكهما بثيابه.

طال الصمت بينهما، متواجهان في هدأة الظهيرة، البيت خال إلا منهما، ففي السنوات الأخيرة لم يعد يشاركهما السكن إلا صباح، آخر العنقود، والتي حين تحضر تحيل السكون إلى ضجيج من التعليقات والضحكات واصطفاق

الأبـواب وتحريـك قطـع الاثـاث، تصاحبهـا دومـا ضجـة تدخـل السـرور علـى قلـب الأم، وتبهـج الأب الـذي ارتكـن زاويـة مـن الصالـة، يشـاهد التلفزيـون أحيانـا، ويقـرأ أحيانـا، ويخـرج نـادرا فـي المناسـبات، متوكئـا علـى عـكازه بمسـاعدة أحـد أبنائـه.

أخيـرا وهـو يسـتحضر هيبتـه الذاويـة، صـاح بهـا بصـوت يرتعـش ضعفـا:

ــ هـل أصبـت بمـس فـي عقلـك؟، مـا هـذا الطلـب يـا امـرأة، صـدق مـن قـال.. ناقصـات عقـل.

تطلعـت فـي وجهـه، لحظـت ارتجافـات شـفته السـفلى، شـعرت بـأن أحاسـيس مـن التمـرد تشـتعل فـي صدرهـا، وعنـاد لـم تألفـه مـن قبـل يجرفهـا، فأجابتـه بصـوت يرتفـع للمـرة الأولـى فـي حياتهـا:

ــ لقد وعدت أن تلبـي لـي طلبـي مهمـا يكـن ومهمـا يكلـف، وهـا أنـا أطالبـك بالطـلاق.

اغتـاظ مـن ضعفـه ومـن المهانـة التـي لـم يعهدهـا، ومـن اكتشـاف بـدأ يتبلـور بأنـه مـا عـاد ذلـك الآمـر الناهـي، وسـاءه أكثـر أن يكـون طلبهـا الطـلاق جـزاء حالـة امتنـان اجتاحتـه حبـا لهـا وتقديـرا لصبرهـا عليـه، وصـاح بصوتـه المرتعـش:

ـ اغربي عن وجهي يا امرأة!.

نهضت وهي تقول بتحد غير مسبوق:

ـ كن عند كلمتك إن كنت رجلا.

بحث من حوله عن شيء يقذفها به، كما كان شأنه في شبابه حين يغضب منها، فلا تملك إلا أن تنزوي في ركن بينما تنهال عليها النعال وأواني الطبخ، ولكنه لضعف بصره وارتعاش يده لم يعثر على ما ينجده.

كان الغضب من زوجته والسخط من ضعفه يستعران في صدره وهو يولول:

ـ أيتها المجنونة، أيتها الملعونة، يا ناكرة المعروف.. في هذا العمر تطلبين الطلاق؟!.

- 2 -

في ذات ليلة من ليالي أغسطس 1971

أحاسيس مختلطة من توجس قلق ومتعة فضول أبنة الثالثة عشر، مرتمية على السرير في ظلمة شفيفة، ساكنة حائرة لا تعرف ماذا تفعل سوى الانتظار، فيما تراءى لها خطفا بأن المقبل عليها هو أبوها، لكنها سرعان ما تبينت بأنه أطول منه قامة وأعرض جثة وأسرع مشية، وبما تيسر لها رأته يطوح بعقاله وغترته، ينزع عنه ثوبه الأبيض، يقترب منها غارزا رمح ركبته حافة السرير الذي بدا يئن مع حركات جسمه المكتمل بأربعين عاما، مفتولة عضلاته، ارتمى بأكمله قريبا منها، مادا باتجاهها يده، حية تدب فتلامس جسدها الضئيل فيتنفض، فإذا به يهمس لها بصوت مبحوح، (أنا الليلة زوجك، فلا تخافي..) يستعر أكثر خوفها وتوجسها، تجوس الحية متحسسة وجهها فصدرها نازلة سريعا نحو أسفل بطنها، تندفع بعفوية فورية يداها تحاولان الصد، فيباغتها بتعريتها من ملابسها الجديدة التي لم تعهدها من قبل، تتكور على نفسها مرتجفة متوسلة له أن يتركها، يزداد شراسة ويبدأ بتمزيق لباسها الداخلي الصغير، يقلبها على ظهرها، يعتليها مباعدا ساقيها داخلا بينهما مقتحما

إياهـا، تكتـم بالـكاد شـهقة الألـم، فيمـا يرتجـف هـو ناخـرا لاهثـا زافـرا فحيـح فمـه رائحتـه عفونـة تبـغ نفـاذة، يتمـاوج جسـده فـي حركـة هيـاج متسـارعة حتـى يرتعـش ويرتمـي علـى جنبـه، وهـو يلهـج بحمـد ربـه علـى نعمتـه وحـلال متعتـه.

تفتـح عينيهـا علـى مهـل بتـردد، تتطلـع إلـى السـقف الـذي بـدا غائمـا خلـف هـالات مـن ضبـاب، خـدر يسـري فـي جسـدها، ألـم ممـزوج بطشـيش لـذة متواريـة خفيـة، وشـعور مشـوش عـن ثمـة انتهـاك واغتصـاب يجتاحهـا، وعـن نجاسـة قـد اسـتقرت فـي رحمهـا، وهـي تتذكـر تحذيـرات عمتهـا العانـس مـن خطـر أن يفتنهـا رجـل ويغافلهـا فيعتليهـا وينتـزع منهـا أغلـى مـا تمتلكـه الفتـاة!.

تظـل تتطلـع إلـى السـقف تلـك الليلـة، ولا تجـرؤ أن تنظـر إلـى حيـث ارتمـى وتعالـى غطيطـه، وهـي تتذكـر همسـات وضحـكات ضرتهـا أم ناصـر وعمتهـا العانـس التـي أصبحـت لهـا أمـا بعـد وفـاة أمهـا وهـي تلدهـا، لـم تفهـم رغـم كل العبـارات المخاتلـة التـي كانتـا تتداولاهـا وهمـا يحممانهـا ويلبسـانها ملابـس جديـدة ويدخلانهـا الغرفـة، دون أن يوجهانهـا إليهـا مباشـرة، الآن بـدأت تسـتوعب شـيئا فشـيئا بـأن هـذا هـو مـا يريـده الرجـل مـن زوجتـه، عليهـا أن تمنحـه إيـاه دونمـا تـردد وفـي أي وقـت يشـاء، فقـد خلـق الله النسـاء ليكـن متعـة لأزواجهـن.

كانت طفلة ماتت أمها بعد مخاض ولادتها المتعسرة مباشرة، على الأثر هجر أبوها البيت تاركا رعايتها وتربيتها لأخته العانس، برفقة خادم، وهكذا فقدت الأم والأب معا في لحظة ولادتها، لكم هي مشؤومة تلك اللحظة!.

وسرعان ما رحل أبوها عن قريته إلى العاصمة ليتزوج إحدى بناتها ويفتح له بيتا ويؤسس أسرة أخرى، قلما كان يزورها ونادرا ما اقترب منها ومسح على رأسها إلا في مناسبات متباعدة كالأعياد، ولكن القدر ساق لها جارة تعلمت على يديها قراءة القرآن وحفظ كثير من سوره، إلى جانب مقدرة متواضعة في القراءة كانت كافية لإدخال بعض البهجة على أجواء البيت الرتيبة، كانت الطفلة تخرج لتلعب مع بنات جيرانها، ولكن حين جاءها الطمث مبكرا استقرت بين الجدران لا تغادرها إلا برفقة العمة أو الخادم.

حين علم الأب بعد شهور بأمر بلوغ أبنته سرعان ما أتفق مع شريكه في التجارة، على تزويجه إياها، فهذا الأخير قد أجهضت زوجته في حملها الثاني، وتأكد للجميع عدم قدرتها على الحمل مجددا، وكانت أما لطفله البكر(ناصر)، وهي أبنة عمه التي يحبها، ويتاجر بأموالها التي ورثتها عن أبيها، لذا بمعاينة منها وباختيارها تم ترتيب هذه الزيجة دونما أي ضجة، لتكون زوجة ثانية تنجب الأطفال التي عجزت عنها أم ناصر، وخادمة لها تعينها على أمور البيت، كما وافقت

على أن تعيش العمة معهم، فهي التي لا تستغني عنها الزوجة الطفلة، كما لا تستغني العمة عنها بعد طول العشرة.

وجدت أم ناصر في سكينة ــ والتي سوف يتوارى أسمها هذا سريعا بعد ولادة أبنها البكر فلا يعرفها أحد حتى نفسها إلا باسم (أم عبد الله) ــ كل المواصفات التي تتطلبها، فلا وجه لمنافسة معها في جمالها وأنوثتها ولا مقارنة في شخصيتها ولا المكانة التي تحتلها كسيدة بيت ذات نسب وثراء، فسكينة كانت ضئيلة الحجم، تكاد تكون ممسوحة الصدر والأرداف، لا تمتلك أي ملامح يتذكرها الرائي، كأنما هي مخلوقة من ظلال، زادها تهربها من مخالطة أي جمع أو أغراب اعتكافا اعتادته حتى بات عادة لازمة لها وملجأ تستكين له، بعيدا عن أي عين تتفحصها فلا تقع منها على شيء مميز، فلا ترتاح إلا لعمتها فتنطلق تتحدث معها بتلقائية لا يعرفها غيرهما.

لا تتذكر كيف غلبها النوم تلك الليلة، ولكنها تتذكر بكل حواسها استيقاظها على يده تعاود تتلمس صدرها ثم تنحدر سريعا نحو أسفلها ليعود فيفرد ساقيها ويعتلها ويقتحمها بشيء من الهدوء، ويتأرجح جسمه عليها حتى يرتعش وتحس بدفقاته الساخنة هذه المرة في جوفها، ليرتمي لحيظات ساكنا، ثم ينهض خارجا من الحجرة دونما كلمة أو التفاتة إليها، فيتناهى إلى سمعها آذان الفجر، وتدخل عليها

عمتها متهللة تحتضنها بفرح وتغمرها بقبلاتها: مبروك عليك هذا الزواج يا أبنتي، محظوظة أنت بمثل هذا الرجل.

تقودها نحو الحمام وتدخل معها لتلقنها كيفية اغتسال الجنابة، فتبدأ بغسل موضع الجماع لتتطهر من نجاسته، وتخلل منابت شعرها بأصابعها تحت انصباب المياه ثلاث مرات لجانبها الأيمن ثم الأيسر لتنتهي إلى غسل القدمين، وهي تكرر وراء عمتها عبارات ستحفظها سريعا وتظل ترددها لسنوات مديدة قادمة!.

حين تحرك في أحشائها بكرها، عمت الفرحة البيت، ونالت استحسان من حولها وشعرت بأنها أنجزت ما كان يتوقع منها، وأهدتها أم ناصر ثيابا جديدة وجهزت لها سريرا صغيرا كان في الأصل لوحيدها (ناصر)، ولكنها ظلت في حجرتها المنزوية في الطابق الأرضي بجوار الحجرة التي تتشارك فيها عمتها مع الخادم العجوز، قريبا من المطبخ والمخزن في عمق البيت، فيما يحتل الواجهة مجلس الرجال الذين يزورون (أبو ناصر) بعد صلاة العشاء من ليلة كل جمعة، ويظل الطابق العلوي حكرا على (أم ناصر) حيث غرفتها الواسعة التي تطل بشبابيكها الخشبية على الشارع، وصالة عريضة تجالس فيها زوجها في الأماسي الأخرى يستمعان للمذياع أو يشاهدان في السنوات التالية التلفزيون الذي لن يكتب لأم عبدالله أن تشاهده إلا في السنوات اللاحقة

بعد الاستغناء عنه واستبداله بآخر ملون، ومع ذلك الحمل لم يتغير وضعها ولم تضف إليها أي امتيازات حتى أن وضعت طفلها لتبدأ أم ناصر في الاشراف المباشر على تربيته حيث كانت تأخذه طيلة النهار بحجة أن تتيح لأمه المجال لإنجاز متطلبات البيت من طبخ وكنس وتنظيف وغسل للثياب وجلي للصحون، فيما كانت تتركه لها ليلا، وهكذا حتى تعلق الطفل بها دون أمه، وتكرر ذات الأمر مع شقيقته (خيرية) ثم مع الطفل التالي (جاسم).

كانت أم عبد الله مستسلمة لا تعترض على أي قول أو تصرف لأم ناصر، فهي بمثابة سيدتها المطاعة، وفي مقام أمها كما تؤكد عليها عمتها، وحين كبر الأطفال تشاركوا في سكنى حجرات الطابق العلوي قريبا من (الوالدة) كما أطلقوا عليها تمييزا عن أمهم التي ظلت في حجرتها، حتى اختطف الموت ذات صباح (الوالدة) التي بكاها جميع أفراد الأسرة بمن فيهم أم عبدالله، التي كانت أكثرهم تأثرا واحساسا بالفراغ من بعدها، خاصة عندما بدأت تضطر، باضطراب وتردد أول الأمر، لاتخاذ القرارات المعيشية لتسيير حياة العائلة اليومية، قرارات طالما انفردت بها ضرتها لسنوات طويلة، فاستقامت لها الأمور بصورة تلقائية، وأصبحت المحرك الأول، ولكن دونما أن يلحظ ذلك أبو ناصر أو أبناؤها، كما مياه النهر حين تعبر من تحت جسر.

رفضـت أم عبـد الله أن تصعـد إلـى الطابـق العلـوي، وتحتـل غرفـة أم ناصـر، ولمـا سـألوها أجابـت:

ـ لا أستطيع أن أنام في فراش غيري.

- 3 -

في مساء ذات اليوم من فبراير 2011

ــ يا أبي.. أخونا ناصر قد يكون أكبرنا.. ولكنها تظل أمي أنا وجاسم.. أرجوك أترك الأمر لنا نحن أبناءها نحاول التفاهم معها.. وحل هذه المشكلة.

بهذا القول كان عبد الله يحاول قطع الطريق على تدخل أخيه غير الشقيق ناصر، في محاولة اقناع الأم بالتراجع عن طلب الطلاق، والذي فجرته في ظهيرة هذا اليوم، فلم يهدأ الأب حتى تسارع أبناؤه وبنتاه للحضور تحت الحاحه المستمر في هذا المساء، تحلقوا حوله يحاولون تهدئة ثائرته، فيما ظل بين الفينة والأخرى، يكرر بصوته المشروخ ضعفا:

ــ أهكذا يكون جزاء المعروف، أقسم لها أن ألبي لها ما تطلب فتطلب هذا المخبولة الطلاق، الطلاق يا ناس!، ونحن في أي عمر؟، وماذا فعلت لها حتى تطلب مثل هذا الطلب؟!، إنني حتى غير مصدق أذني، لقد شككت في عقلي، ولكنكم تأكدتم بأنفسكم، إنها تطلب الطلاق، الطلاق ونحن في هذا العمر!؟.

ــ هي أمنا يا أبو ناصر، أترك لنا الأمر كما قال عبد الله، ولن يكون إلا كل الخير إن شاء الله.

بهذا القول حاول جاسم، الأخ الأصغر، أن يحسم الموقف، ويجعل المسألة في حدود الأم وأبنائها، بعيدا عن تدخل أخيهم الأكبر صاحب السطوة والآمر الناهي، بعد انحسار سلطة أبيهم في الأعوام الأخيرة.

سارعت خيرية لتؤكد صواب هذا القول، فيما انطلقت صباح، آخر العنقود، بما عرف عنها من جرأة واندفاع لتقول:

ــ مؤكد أن أمنا لديها سبب ما، فدعونا أولا أن نسمعها قبل أن نطلب منها التراجع عن طلبها.

صاح ناصر مستنكرا غاضبا:

ــ لديها سبب؟!، ما شاء الله، إذا كنتم موافقين على هذا القول، فالله يستر كيف ستقنعون أم عبد الله بالتراجع، دعوني أنا أتفاهم معها.

فيما أرسل عبد الله نظرة توبيخ وحنق لشقيقته صباح، وهو يوجه كلامه لوالده:

ــ يا أبي.. أنت أعرف منا بشطحات صباح، دع الأمر لنا أنا وجاسم وخيرية، وسوف يكون لك ما تحب وترضى.

وقبل أن يجيبه الأب، اندفعت صباح محتجة:

ــ وما موقعي أنا بينكم، أنا قلت دعونا نستفهم منها حتى

نستطيع ايجاد الحل، هكذا يتطلب المنطق العلمي حل المشكلات.

ــ هيا أذهبوا إليها وليكن في معلومكم ومعلومها، إنني غاضب ومصدوم، ولن أسامحها أبدا على هذه الفعلة الشنيعة.

هكذا أجاب أبوناصر وهو يستعيد شيئا مما بدأ يفقده بين أبنائه، في أيامه الأخيرة.

- 4 -

ـ شذرات من يوميات صباح:

- لطالما تطلعت في الصور المعلقة على جدران منزلنا أو تلك المنصوبة على الطاولات، أو التي تضمها البومات العائلة، كان لكل فرد منا نصيبه أما منفردا أو مجتمعين، ففيما تحتل الصدارة أم ناصر، فإن أمي أم عبد الله تخلو منها جميع الصور، كأنها نسي منسيا!.

- ذات مرة حاولت أن التقطت لأمي أم عبد الله صورة بكاميرتي، فإذا بها على غير عادتها تخرج عن هدوئها المعهود وتهجم على الآلة وتقذف بها بعيدا بضربة خاطفة من يدها، صائحة (إياك ومعاودة مثل هذا التصرف مرة أخرى)، شعرت كأني استبحت محظورا، فللحظات أصبحت أمي شخصا آخر غير الذي نألفه ونعرفه، لتعود بعدها وبسرعة لتلك التي عهدناها.

- هذه واقعة لم أحضرها، ولكني عايشتها من خلال ما سمعته من أمي، فقد كنت عند حدوثها في الجامعة،

دخلت عمتي إلى المطبخ في غفلة من الجميع، فتحت جميع عيون فرن الغاز، وبقيت لفترة حتى تسرب رائحة الغاز إلى خياشيمها، وأمسكت بثقاب وأشعلته لينفجر بها المكان، قبلها كانت تردد على مسامع أمي بأنها تتمنى على الله أن يعيشها غنية، وهذا لم يتحقق فلا أقل أن يميتها وهي قوية، فقد كانت تخشى أن تعيش عاجزة تستجلب الشفقة ممن حولها، وهي التي تعودت على الدوام أن تكون من تمد يد العون لغيرها!.

- 5 -

في وقت لا حق من مساء ذلك اليوم من فبراير:

اندفع عبد الله وأشقاؤه من خلفه، إلى حجرة والدتهم، وما أن أغلقوا وراءهم الباب، وتطلعوا إليها، حتى استشعروا جميعا بغتة ثمة أمر غير مألوف، فهي رغم سكونها في جلستها على حافة سريرها، وتنكيسة رأسها المعتادة، كان يبدو حضورها غير الذي ألفوه، وحين هم عبد الله الحديث، مبتدئا بمناداتها المتعارف عليها: يا أم عبد الله.

حتى فوجيء بها تشير بيدها لتوقفه عن الكلام بطريقة حازمة، وبصوت خفيض ولكنه آمر حاسم:

ـ من الآن ليس لأحدكم مناداتي (أم عبد الله)، يناديني (أمي)، أقبلها منه.. يناديني (أمي سكينة) سيكون ذلك أفضل.

شاعت أجواء حبور طارئة، فتشجع عبد الله وقال:

ـ كان يسعدني كثيرا أن أسمعهم ينادونك أم عبد الله، لأكون الوحيد الذي يناديك أمي.

حدجته بنظرة صارمة وقالت:

ـ ولكني لم أسمعها منك مرة واحدة!.

حـاول عبـد الله أن يتضاحـك ولكنـه شـعر أنهـا محقـة تمامـا، فقد رسـخت الأيـام بينهـم جميعـا، وباسـتثناء صبـاح التـي ترعرعـت فـي أحضـان أمهـا سـكينة، لكونهـا ولـدت فـي فتـرة مـرض أم ناصـر الأخيـر، فـإن أم ناصـر ظلـت هـي الأم الأولـى، حتـى بعد أن غيبهـا المـوت، فلهـا ذكراهـا وذكريـات عـن مواقـف معهـا، فـي حيـن ظلـت أم عبـد الله، بحضورهـا اليومـي وتحركاتهـا الـدؤوب فـي مختلـف أنحـاء البيـت وتلبيتهـا لمتطلباتهـم اليوميـة، تأتـي فـي المنزلـة الثانيـة مـن التقديـر والاهتمـام.

كان إصـرار أم عبـد الله علـى الطـلاق، رغـم كل محـاولات أبنائها مثـار اسـتغراب، فأبـو ناصـر قـد تجـاوز الثمانيـن، ولـم يعـد، فـي ظـل حالتـه الصحيـة المتردية، قـادرا علـى مطالبـة زوجتـه بـأي معاشـرة جنسـية، فمـا هـو سـر هـذا الإصـرار؟.

حـاول الأبنـاء ثنيهـا عـن هـذا المطلـب الغريـب، موضحيـن أن ذلـك سـيكون مضـرا بسـمعتها، خاصـة فـي وضعهـا وفـي مثـل عمرهـا، ثـم إلـى أيـن سـتذهبين بعـد الطـلاق، فكانـت المفاجـأة إنهـا لا تنـوي تـرك أسـرتها أو التنصـل مـن واجباتهـا التـي تؤديهـا يوميـا بمـا فـي ذلـك رعايـة والدهـم، علـى أن تقتصـر رعايتهـا لـه ليـس كزوجـة، فـلا دخـول معـه للحمـام ولا انفـراد بـه فـي غرفـة نـوم ولا....

كانـت صبـاح هـي الوحيـدة التـي تفهمـت واسـتوعبت إصـرار

أمهـا علـى طلـب الطـلاق، فقالـت لأخوتهـا بعـد أن خرجـوا خائبيـن:

ــ أمنـا طـوال حياتهـا كانـت مسلوبة الإرادة، لـم تكـن صاحبـة قـرار فـي أي شـأن يمسـها أو يعنيهـا، ظلـت مفعـولا بـه حتـى فـي أبسـط حقوقهـا، اليـوم فقـط انتبهـت مـن غفلـة طويلـة بطـول عمرهـا، اليـوم تريـد أن تتحـرر مـن سـطوة مـن هـم حولهـا بمـا فيهـم والدنـا الـذي لا حـول لـه ولا قـوة، أليـس هـذا مـن حقهـا؟.

- 6 -

في صبيحة اليوم التالي:

فتحت صباح عينيها على وجه أمها، منحنية عليها، تلفحها أنفاسها عن قرب، وهي تتأملها،

استشعرت صباح أن وجه أمها كان متألقا مشرقا بابتسامة عذبة لم تشهدها قط، كانت كما لو هي جذلى بفرح طاغ يشع من عينيها ومن ابتسامة شفتيها، كمن استعادت سنوات شبابها، واكتشفت للتو كنه ذاتها!.

ـ هيا يا بنيتي.. أنا مستعدة لتأجيل طلب الطلاق.

أطلقت ضحكة جذلى كأنما تلقى بطرفة، ثم أردفت

ـ بشرط.

اعتدلت صباح عن رقدتها وكررت متسائلة:

ـ بشرط؟!، ما هو الشرط يا أماه؟.

قالت الأم:

ـ أن تضمني صورة عائلية تجمعني مع كل أبنائي وأحفادي.

بعد ظهر ذلك اليوم، وفي الاستديو الذي أصرت أن تلتقط

فيه الصورة التي تتمناها، وليس بكاميرات الهواتف الذكية كما أقترحوا، جلست على مقعد وثير وحلّق وراءها أبناها وابنتاها بينما جوارها جميع أحفادها، محتضنة أصغرهم، وابتسامة ما عرفتها من قبل ترتسم على شفتيها.. مخلدة انتصار تلك اللحظة للأبد.

• نشرت في موقع جهة الشعر الإلكتروني للشاعر قاسم حداد في عام 2014

• قام يعقوب يوسف بإعداد سيناريو مسلسل تلفزيوني من ثلاثين حلقة لم ينفذ بعد، من وحي وأجواء هذه القصة.

سيجارة غير مشتعلة

تأملها وهو يتلاعب بسيجارته غير المشتعلة، يدسها تارة بين شفتيه ويمج منها نفسا بلا دخان، وتارة يراقصها بين أصبعيه كأنها تسقط ولا تسقط، فيما كانت المرأة تواصل خلع ملابسها في زاوية من حجرته في فندق يطل على البحر الذي يحبه، امرأة التقاها في المجمع الملاصق، جالسة على مقعد منعزل في مقهى يكاد يخلو من زبائنه، استدعى جرأة لم تكن يوما من خصاله، حياها فألفاها ترد تحيته بأحسن منها، جلس بجوارها، تعمد أن تلامس يده كتفها العاري بحركة تبدو عفوية، فابتسمت فتهلل وجهه بابتسامة رضا عن نفسه، وسرعان ما وافقت على أن تصحبه لحجرته في الفندق القريب، لقضاء وقت قصير معه لقاء مبلغ زهيد في نظره.

قبل ذلك، كان قد غدا وحيدا في هذه المدينة التي طالما حلم أن يزورها، بعد أن فارقه فجأة في الصباح الباكر صديقه ودليل سفرته، فور أن تلقى خبر وفاة شقيقه، فكان عليه قطع الرحلة والعودة سريعا، شعر بفراغ عارم وهو يتجول منفردا، حتى التقى هذه المرأة.

توقفت عن مواصلة خلع ملابسها، هاجمها شعور بالخجل المشوب بالقلق من تحديقه، وهي التي اعتادت أكثر من التحديق، لكنها استشعرت ما هو غير مألوف في تلك النظرات المسلطة عليها، من رجل جلس على مقعده صامتا ساكنا سكون تمثال، فكثيرا ما حذرتها صديقاتها من غريبي الأطوار، لعله أحدهم، فهو يصطحبها في صبيحة اليوم وليس في مسائه، وهو حين دخل معها الفندق تجنب المرور على مكتب الاستقبال، حيث المتعارف عليه أن يبلغ موظفيه بمرافقتها له، فتسلم لهم بطاقتها الشخصية، باعتبار ذلك حماية متبادلة للضيف كما للمرأة التي يصطحبها لحجرته، من يضمن ما يمكن أن يبدر منه وما يدبر لها، مسحته بنظرة تتفحص حجم جثته لتقارن قدرتها على المقاومة فيما لو حاول الاعتداء عليها، ولكنها سرعان ما استسخفت الهاجس واستبعدته، فهو لم يحاول حتى لمسها أو تقبيلها، بل العكس يبدي في تصرفاته القليلة ترفعا وكياسة.

حين طالت وقفتها ترنو إليه في صمت حائر، ندت منه إشارة إليها بمواصلة خلعها لملابسها، كانت قد بدأت في تفكيك صدريتها ليندلق ثدياها العامران، بحلمتين نافرتين، بطنها ضامر، كأنها لم تحمل يوما بجنين، امتدت يداها تخلع تنورتها القصيرة، فانساب فخذاها مشدودان، فيما أبقت على سروالها الصغير وتطلعت له، هو الغارق في ذات الجلسة الساهمة، المتلاعب لازال بسيجارته غير المشتعلة.

فيما تتوغل نظراته وتطوف على تضاريس الجسد الماثل أمامه، تصعد هضابه وتنحدر مع سهوله، فإن سؤالا يباغته، كيف له وهو الآتي عبر البحار، أن يسترق هذه المرأة بهكذا صفقة وصدفة، وهي المقيمة هنا، المنحدرة من بيئة تختلف عن بيئته إيما اختلاف، كيف يلتقي شخصان من عالمين متباعدين في لحظة ما في مكان واحد، مجهول يلتقي بمجهول، ويتفقان رغم ركاكة اللغة المشتركة على أن يكون بينهما ما ظل طوال عمره، يحسبه أمرا لا يتحقق إلا حين يلتقي بكائن فريد يخلق له ويخلق هو له بالمقابل.

أشار إليها أن تجلس على المقعد المقابل له، سألها عن اسمها، وتذكر لحظتها أنه سبق أن سألها ذلك، ولكن اجابتها حينها لم تعلق بذاكرته، ربما لانفعاله أو ارتباكه، أما الآن وقد هدأت النفس، وانفرد بها في هذا الحجرة، فإنه يحاول أن يمد معها حبل تواصل.

أجابته: اسمي ايمي، ضحك سائلا: هل هو اسمك حقا، ضحكت وسألت بدورها وما هو اسمك أنت؟، شعر بأن لزاما عليه أن يبتدع هو الآخر اسما غير اسمه، بهذا نصحه صديقه ودليل سفرته، وأضاف الصديق، وحتى بلدك تنكر له واذكر بلدا آخر، هكذا تجري الأمور.

وعلى نقيض ابتداع اسم بديل له ولبلده، فقد شعر بأن الانفراد مع هذه المرأة، يكشف عن جانب مخفي من شخصيته، حيواني وحشي غير مستأنس، هنا يلبس اللباس القصير، هنا يلبس الألوان الصارخة التي لطالما تمنى أن يلبسها هناك ولم يجرؤ، هنا العري مباح لأنه اعتراف بحرية الجسد، فها هي كما تجالسه عارية يجالسها هو عاريا حتى وهو في كامل ملابسه، ففي العري الحيواني صدق مباشر.

تطلعت في الأرجاء متفحصة وسألت عن أجرة الحجرة لليلة الواحدة، وحين أخبرها بالمبلغ، ضحكت وقالت هذا يتجاوز راتبي الشهري بكثير، فأنا أعمل طباخة في مطعم.

تحررت من تحفظها وانسابت تتحدث عن نفسها، بلغة تستعين بالإشارة حين تعجز الكلمات، اكتشف بأن جوا من حبل الألفة قد بدأ يمتد بينهما، ولم يعد جلوسها أمامه بإطلالة نهديها وحلمتيهما البارزتين أي مدعاة للغرابة، نسيت هي عريها ونسي هو عريه وتقابلا في منتصف غرابة الموقف.

أخبرته بأنها إلى جانب عملها فهي طالبة في الجامعة، وإن لها طفل في الثالثة من عمره نتيجة علاقة مع صديق لها هجرها لاحقا، وهي تجاهد لوحدها لتربيته أحسن تربية، كان يستمع لها ويستحضر حكايات مماثلة سبق سردها في الأفلام وحكايات أصدقائه الساخرة.

أشارت ضاحكة إلى سيجارته غير المشتعلة متسائلة، فأخبرها أنه ليس من المدخنين، إنما هي نزوة، اشترى علبة سجائر للتو قبل أن يلتقيها، ها هو يكذب مرة أخرى، لو أنها اقتربت منه لشمت رائحة الدخان في فمه، أو تمعنت في أصبعيه للاحظت آثار السجائر عالقة بينهما، سألت هل يمكنني أن أدخن؟، تطلع إلى ملصق صغير على نافذة البلكونة تمنع التدخين في مثل هذه الحجرة، أشار إليها ضاحكا، فأشارت بدورها أنه يمكن التدخين في البلكونة، وهمت بالتحرك، مد يده وأمسك بزندها ليوقفها، مشيرا إلى صدرها العاري العاري.

تطلع للساعة فإذا هي تقارب الثالثة ظهرا، استغرب كيف مضى بهما الوقت، هي تواجهه بعري صدرها وفخذيها وهو يواجهها بعريه غير المرئي، دونما أي تماس بينهما، كان لا زال يتلاعب بسيجارته غير المشتعلة، فيما هي تتلاعب بالكلمات تحاول أن تتحدث عن نفسها وحياتها.

اقترح عليها الخروج للغداء، نهضت ترتدي ملابسها بسرعة كما لو كانت زوجة، خرجا لمطعم يطل على البحر، تواصل بينهما الحديث المتعثر ولكن المتواصل، ضحكا كثيرا وهي تشرح له بحكم خبرتها مكونات ما يأكلان من أطعمة كان يتجنبها ويخشاها.

بعد الغداء سدد الفاتورة، ثم دفع لها ما اتفقا عليه من مبلغ، وودعها، وسيجارته غير المشتعلة بين أصبعيه، بادرته بتقبيله على خديه، ولكنها قبل أن تمضي طلبت منه سيجارة فاخرج العلبة وسحب لها منها سيجارة وما أن استلمتها ووضعتها بين شفتيها حتى امتدت يده بولاعته يشعلها له بعفوية دونما تدبر، رانت على محياها علامة اندهاش واضحة، لكنها اكتفت بابتسامة متواطئة معه ومضت، خالجه زهو خفي لم يفهمه لأول وهلة، ثم سرعان ما شعر بأنه سوف يحتل في ذاكرتها مساحة أكبر مما قد يحتلها أي من العابرين على جسدها.

• 2016 ، غير منشورة

توجس

نـزل متـرددا فـي ميـاه مسـبح النـادي الصحـي، وحيـدا متوجسـا يتلفـت مـن حولـه فيمـا الريـاح العاتيـة تهاجـم بشـدة مظـلات القمـاش التـي نشـرت علـى هيئـة مثلثـات متعاكسـة كالأشـرعة لتغطـي مسـاحات واسـعة مـن المسـبح الكبيـر وقـد شـدت بحبـال مجدولـة مـن المعـدن إلـى سـاريات علـى الأطـراف، لتتراقـص باضطـراب صاخـب كمـا لـو تسـعى للانفـلات مـن عقالهـا.

وحيـدا تغمـره الميـاه ومشـاعر التوجـس والخـوف، لكنـه يعـاود السـباحة فيمـا يصلـه أزيـز الحبـال المعدنيـة وهـي تحتـك وتئـن بثقـل هجمـات الريـاح علـى الأشـرعة مـن فوقـه، لا أحـد يقاسـمه توجسـه وهـو يرفـع رأسـه بيـن فينـة وأخـرى للأشـرعة المتصارعـة مـع الريـاح، يتفحـص بقلـق حلقـات ارتباطهـا بالسـاريات، تتناهبـه احتمـالات شـتى، لكنـه يقاومهـا بمصارعـة الميـاه بقـوة سـاعديه كمـا لـو أنـه يدفعهـا بدفـع الميـاه عنـه.

فجـأة ينفلـت حبـل مـن قبضـة العمـود وبسـرعة البـرق يقصـده هـو دون أي ناحيـة أخـرى، يهـوي بسلسـلة معدنـه المجـدول ليضـرب مؤخـرة عنقـه ويفصـل رأسـه، يشـاهد جذعـه يتخبـط مـن هـول الضربـة فيمـا رأسـه يبتعـد وحولهمـا تنبثـق بحيـرة دم وسـط بحـر المسـبح.

لا أحد هناك يشاركه مشاهدة هذا الحدث، وحده يشهده وهو جالس على كرسي بمحاذاة المسبح!.

ما أن يستفيق من صدمة المشهد، حتى يتورط في مشهد مغاير دونما فسحة وقت:

فيما هو يسبح وحيدا مصغيا بتهيب لأصوات احتكاك الحبال بقبضات الأعمدة بفعل الرياح، حرص أن يظل بمحاذاة حافة المسبح، محاذرًا الابتعاد عنه إلى العمق، حتى تتاح له فرصة القفز خارجا في أول لحظة وقوع حادث يتوقعه ولا يستطيع تحديده، فإذا بضربة مدوية تنزل على أعلى رأسه، وثقل يسقط عليه ويحتويه فجأة ويهوي به إلى القاع، تظلم الدنيا من حوله، فيما راحت ذراعاه تهوشان وتضربان مقاومة قماش المظلة السميك الذي بات يغطيه بالكامل، تمتد يداه إلى أعلى جدار المسبح وتتشبث بكل قوة بحافته فيما يظل القماش السميك يغطيه، ولكنه وبعد أن يتأكد من قدرته على البقاء متشبثا بالحافة بيد واحدة، يحاول بيده المحررة أن يزيح عنه القماش حتى يفلح، يدفع برأسه خارج الغطاء يبهره ضوء الشمس، ويعتلي الحافة يقذف بنفسه خارج المسبح مستلقيا على الأرض مرتجفا غير مصدق أنه نجا.

رفع ناظريه عن جسده المنهك المستلقي عند اقدامه، فيما هو لا زال جالسا على كرسيه يرقب المشهد!.

لطالما كان يغبط نفسه، بل هو غالبا ما يحسدها، على الثواني التي تنتزعه من براثن موت محقق سحقا تحت عجلات سيارة مسرعة، من اصطدام سيارته بسيارة مندفعة إليه في غفلة، من حالات عديدة كان على حافة موت أو إصابة بجروح بليغة، لكن كما في كل مرة، تمتد يد العناية لتنتشله في طرفة عين، فيظل مأخوذا لفترة مديدة وأحيانا يستعيد الحادثة التي انحرفت عن مسارها وأفلت منها بأعجوبة لا يصدقها، يتأمل ما يحظى به من متع بسيطة، دائما هكذا تفكيره، يشعر بالراحة تكتنفه، تغرقه في بحر من الرضا التام.

أن يستشعر البهجة فيما هو فيه الآن، ذلك هو إحساس خفي يجعله يتألق بينما الذين حوله يستغربون طفولية فرحه بهذه المتع العادية في نظرهم.

يعاود السباحة بمتعة لا حدود لها، يستشعر لذة ملامسة جسده للمياه التي تغمره كما يغمره توجس غامض يظل يناوش استمتاعه من جديد، فيما فرحه يتسع وهو يجتاز ذلك التوجس في هذه المرة كما في كل مرة..

• 2018 ، غير منشورة

التحديق في الوجه المألوف بغرابة

إلى قاسم حداد

- 1 -

(في صالة القادمين في مطار مألوف، في زمن لا يحتاج إلى تحديد، فكل الأزمنة باتت واحدة).

هو يمشي مسكونا بهواجس شتى، وليس ثمة أحد يقاسمه.

هاجس أول:

يرصدها وهي منطلقة إليه، رصاصة مكتومة الأزيز، بطيئة تأتيه تخترق صدره فيرتج جسده إلى الوراء بفعل عنف الاختراق، ويبدأ في التهاوي إلى الأرض فيما عيناه تطوفان الوجوه وصفحة عريضة من السماء تبدت من زجاج نافذة الصالة الشاسعة، حتى تحطان على الأقدام وهي تتفاداه يمنة ويسرة وقد توسد الرخام الصقيل بصدغه والأصوات من حوله تتناءى ليطبق صمت شامل لا يقلقه إلا دقات قلبه مضطربة الإيقاع وفي صدره رغبة مدحورة لصرخة مستحيلة، صرخة رفض لأن يتهاوى هكذا بين الجموع ويصير بعد قليل خبرا صغيرا في جريدة محدودة الانتشار، ورقما من حزمة أرقام لميتة مجانية، يكون بعدها نسيا منسيا.

هـو احتـاط لـكل طـارئ، فذاكرتـه مطفـأة، ومفكرتـه تخلـو مـن الأسماء والعناويـن والمواعيد، أمـا كاميرتـه المدلاة علـى جانبـه فهـي بـلا أفـلام.

ينكمـش ويتـوارى مـا بيـن المسـافرين العائديـن، يحتمـي مـن هاجـس فـي الطريـق، يقـاوم الانجـراف إلـى هواجـس أخـرى قادمـة، يحـاول أن يتشـاغل، أن يمشـي كمـا يمشـي الآخـرون فـي سـكينة ظاهـرة وهـدوء، يسـتحث الذاكـرة ليجيـب عـن تسـاؤل يلـح ولا يريـد أن يهـدأ، أيـن هـو الآن ومـا يفعـل، مسـافر مـن الوطـن أم عائـد إليـه، يخـاف أن يكبـر السـؤال.

يتحـرك مـع الركـب أمـام مكتـب الجـوازات حتـى يحـاذي موظـف الأمـن فيدفـع إليـه بجواز سـفره.

يشـرع أمـام ضابـط الجمـارك حقيبتـه، أشـياؤه الشـخصية التافهـة مسـتباحة، تمتـد يـد الضابـط تلاعبهـا، تتحسسـها.

هاجس ثان:

فـي قـاع الحقيبـة يتمـدد أحدهـم متكومـا علـى نفسـه علـى هيئـة جهـاز إرسـال صغيـر.

و ينتظـر ثوانـي أن يسـتجوبه الضابـط عـن الجهـاز، يهيـئ نفسـه ويلتمـس كل الحجـج اللامجديـة وعبـارات الإنـكار والنفـي

والتوسل أخيرا، إلا أن يد الضابط تهيل على الجهاز الثياب، تغلق الحقيبة، يواجه عينين في نظرة غامضة ويبقى وحيدا أمام ذلك الذي رآه.

يمشي بتوجس، يقترب من بوابة الصالة، من ورائه حقيبته تئن عجلاتها من ثقل ذلك المتكوم في قاعها.

للشرطي الواقف عند البوابة يد معترضة تمتد.

هو يقف، يتطلع متسائلا والقلب يخفق بقوة.

الشرطي يطلب منه جواز السفر.

يسلمه إياه.

الشرطي يبدأ في تصفح الجواز بآلية باردة، وهو يتابع حركة الشرطي، يتطلع إلى الخارج لعل وجها مألوفا في انتظاره.

الشرطي يعاود تصفح الجواز من جديد، لم يعثر على ختم الدخول، هو ينتبه بقلق، يتابع يد الشرطي في رحلتها الثانية.

تتوقف يد الشرطي على صورة حامل الجواز ثم تقلب الصفحة.

هو ترتج به الأرض، ترتعد شفتاه، يغالب صرخة فزع، تنفلت منه تمتمات كمن يوضح للشرطي شيئا هو ذاته لا يعرفه، لكن الشرطي يفاجئه بتسليمه الجواز بعد أن عثر على بغيته، ويبقى ثانية وحيدا أمام ذلك الذي رآه.

هاجس ثالث:

يخطو، بجبروت تحط على كتفه من الخلف يد، يد تعرف كيف تنزل في هدوء القناص المتمكن، تعرف متى تنزل، يختلج الكتف لنزولها، ينتفض فريسة لا حول لها ثم يسلم الأمر لمشيئتها، تمضي به ولا يملك أن يسأل إلى أين ولماذا؟.

هو يخرج خارج صالة القادمين، يتلفت في كل الاتجاهات مذهولا لم يستوعب بعد ما رأى، يقرر الاختلاء بنفسه، دورة مياه قريبة، يترك حقيبته عند بابها ويدلف، يشعر براحة لخلو المكان ويواجه المرآة.

في المرآة عينان تتفحصان وجهه لحظة، يفتح جواز السفر على صورة حامله، عيناه تتفحصان في الصورة ثم في المرآة، تسافران ما بين الاثنتين مرات.

هو يرتجف غير مصدق، يتمتم: هاهم قد بدأوا معك؟.

في المرآة جنبا إلى جنب، وجهه وصورة حامل الجواز لا يتطابقان.

يعاود قراءة الاسم وتفاصيل وجوده، ذات الاسم والتفاصيل، ولكن في المرآة: جنب إلى جنب، وجهه ووجه صاحب الصورة متنافران.

- 2 -

(خارج وداخل بيت مألوف بشيء من الغرابة، والوقت صار ليلا)

هو يتجه إلى باب البيت مترددا، فلولا بطاقة عنوان ملصقة على ظهر الحقيبة لما جاءت به سيارة الأجرة إلى هنا، يتلفت ويفحص الشارع المقفر ويقترب أكثر من الباب، لوحة تحمل أسمه، نافذة قريبة مضاءة، ثمة ألفة غير مفهومة تشده إلى كل شيء من حوله، يستنفر ذاكرته بلا جدوى.

هاجس أول:

يمد يده ليضغط على زر الجرس، ينفجر المكان، يطوح به إلى الأعلى، يشاهد المدينة من فوق نائمة والبيت يسبح في لهب ودخان، يتناثر جسده على مهل أشلاء وتتوزع فراشات على الخرائب التي تتصاعد منها رائحة البارود والدمار.

يتأمل المكان، الباب، اللوحة، النافذة المضاءة، يميل برأسه يصيخ السمع بلا جدوى لأصوات من في الداخل، لا يتذكرهم أبدا، تمتد يده إلى جرس الباب، تضغط عليه مرة، وينتظر ثوان فلا يسمع صوتا، يعاود الضغط مرة ثانية وينتظر لثوان أخرى ثم لا يقاوم رغبة الضغط المتصل، محموما بشوق لرؤية ولقاء من ينتشله من عذاب لم ين يعصف به

مذ لحظة وصوله.. لا يدري كيف بدأ ولماذا؟.

ممنيا النفس بأنها ستهدأ بعد قليل وتضاء الذاكرة من جديد على وجوه وذكريات ممتدة جذورها بالأرض والزمن والأصدقاء، آه كيف له احتمال كل هذا الضياع؟.

هاجس ثان:

يفتح الباب، ليس ثمة أحد في الداخل، كمين يكمن له.....

هو طاردا الهاجس، ضاربا يديه على الباب كمن يستنجد من مجهول يلاحقه، الباب تنفح إحدى ضلفتيه بحذر وتبرز طفلة رأسها بتردد وتطل بنظرة مستطلعة مستفهمة.

هو لا يرى في الظلام ملامح الوجه الصغير وتعابيره، يمد يده ملاطفا الوجه محييا الصغيرة.

الطفلة تجفل وترتد إلى الداخل، تنادي: « ماما.. رجل غريب بالباب».

تطن في إذنه صفة « غريب» فيجفل الأمل الوليد ويكاد ينطفئ، يتشبث بلوحة الاسم المثبتة على الباب، يجرب ملامسة حواف الذاكرة المعتمة علها تمنحه بصيصا حول امرأة وطفلة وبيت.

والانتظـار وقـت أعمـى محاصـر بيـن البيـن، يتحسـس لـه مخرجا بيديـن تتخبطـان فـي كل اتجاه.

والمـرأة يسـبقها صـوت خطواتهـا المقتربـة، وإطلالـة حـذرة مـن خـلال ضلفـة البـاب الموارِبـة.

ولحظة تمعن مسكونة بالصمت والتوجس.

والمـرأة فـي أوج نضجهـا، ثـوب لـه رائحـة البيـت والألفـة يبـرز ذراعيـن يعشـي بياضهمـا الضـوء الشـفيف ووجـه مـدور حلـو، وصـدر يخفـق ويعلـو فـي موجـات انفعـال.

هـو يتأمـل المـرأة، يسـتعطف الذاكـرة للمـرة الأخيـرة ألا تخذلـه، مـن تكـون هـذه المـرأة: زوجـا أم أختـا أم أمـا.

المرأة تهتف باسمه في صيغة تساؤل دهش.

يبادر مؤكدا: أجل أنا هو!..

المـرأة تندفـع إلـى أحضانـه تسـبقها صيحـة فـرح غامـرة، مـرددة أسـمه كمـن تعبـر فـي آن عـن سـعادتها بعودتـه ولوعـة انتظارهـا المـر الطويـل.

يحتويهـا بـلا تدبـر بيـن ذراعيـه، يضمهـا إلـى صـدره، يـداه تتحسسـان دفء كتفيهـا وظهرهـا فيمـا راحـت قبلاتـه تطيـش متوتـرة مـا بيـن الجبيـن والوجنتيـن حتـى تلتقـي شـفتيها فتصيـر

قبلة طويلة، فرح ولذة، فجأة وهزة، فمها حمامة تضم إليها صغارها، هو كل صغارها، تنفلت منه صيحات لاهثة ما بين القبلة والقبلة:» آه .. عدت لك، أمي الحبيبة».

المرأة تدخله البيت قابضة على يده، تنادي طفلتها التي انزوت في أحد الأركان خجلة وجلة من هذا العائد، من هذا اللقاء العاصف، تقول لها: «هذا أبوك قد عاد.. أبوك عاد..».

يسرع إلى الصغيرة، يرفعها إليه، يحدق في وجهها، في عينيها ويقبلها بلهفة محمومة..

ها هو زوج وأب في ظل بيته، وداعا للضياع.

- 3 -

(في إحدى غرف البيت المألوف بشيء من الغرابة، هي غرفة نوم على الأرجح، والزمن ساعة متأخرة من الليل).

هو: يفضل ألا يضيء الغرفة، يواصل تجفيف جسده المبتل من حمام دافئ، يرمي المنشفة ويظل عاريا يندس في الفراش الكبير متلذذا بنعومة الأغطية، بعريه، بتجرده من كل شيء، وانتظاره لامرأة تنشق عنها اللحظات القادمة، ملغيا كل حيرته وأسئلته، مسترخيا في الظلام الشفيف مستسلما لهدأة الليل، وإحساس يحتويه على مهل بغرابة ما سيحدث، امرأة لا يعرفها تأتيه إلى الفراش، زوجة وأم طفلته..

هاجس أول:

يطل برأسه محاولا أن يبدأ..

هو: يجهضه، إذ يفتح عينيه على سعتهما في الظلام، ويفرد ذراعيه على الفراش، متنهدا، يصر أن يعيش لحظته دون أن يبعدها إلى تخوم الماضي أو الآتي.. إنه مكتف باللحظة وحسب، ممتلئ بها..

المرأة: تفتح الباب وتقف على عتبته، من ورائها ضوء الصالة يقتحم الغرفة ويرسم منحنيات جسدها في غلالة شفافة..

تضطـرم فيـه الرغبـة، امـرأة بهـذا النضـج، يغمـره عطـر الياسـمين الأخـاذ، تقـول: « كيـف تسـتطيب الظـلام، مـا عهدتـك تطيقـه»، تمـد يدهـا وتضـيء مصباحـا بجـوار السـرير.

هـو: يقـاوم تـردده، يقتـرب منهـا، ينحنـي عليهـا، يهـم بتقبيلهـا.. تحيـن منـه التفاتـة إلـى صـورة بجـوار المصبـاح، صـورة الرجـل والمـرأة.. يتقـرب أكثـر، يبـرز ذات الرجـل الـذي احتـل مكانـه فـي جـواز السـفر، يطـوق امـرأة، امـرأة غيـر هـذه التـي فـي الفـراش.. يعتـدل فـي جلسـته ويشـير إلى الصـورة: « مـن هما؟».

المـرأة تلتفـت إلـى حيـث يشـير، تضحـك: « ومـن يكونـان فـي رأيـك.. هـذا أنـت وهـذه أنـا فـي حفـل زفافنـا..».

ينتفـض واقفـا، ذاهـلا عـن عريـه، ينظـر إلـى الصـورة فـي رعـب ثـم يتجـه إلـى البـاب هاربـا مـن هـذا الغريـب الـذي يلاحقـه ويحتـل وجـوده فـي كل مـكان.

- 4 -

(غرفة النوم ذاتها، في اليوم التالي والوقت صباحا، صباحا متأخرا)

هو: يفتح عينيه في تردد، وحين يتيقن أنه وحده في الفراش، يشعر براحة، يتأمل المكان من حوله مستطلعا، ثمة صور معلقة وأخرى على الرفوف، ينهض، يفاجأ بعريه، يجفل ويعدو سريعا إلى الفراش، يتذكر البارحة، يخجل من نفسه، خيبة وأيه خيبة.

هاجس:

يحاول أن يتشكل لكنه سرعان ما يتلاشى أمام غرابة ما يحدث له.

هو: يلف وسطه بمنشفة ويتفحص الصور، هناك يتوزع الرجل الغريب في أماكن وأوضاع عديدة، بصحبته أناس لا يعرفهم، يضحكون، يتزاحمون حول مائدة طعام، يسبحون في بحر، جادون في جلسة، وصورة للصغيرة، صور لها، هي هي بوجهها، بعينيها، هي ذاتها التي تأملها وقبلها.

يشعر أن ثمة عين تراقبه، يلتفت فإذا هي واقفة عند الباب، يناديها تأتيه في حياء.. يأخذها من يدها ويجلسها في حجره، يقبل شعرها ويسألها:

ـ لماذا وصفتني بالغريب عندما رأيتني أول مرة عند الباب؟.

تجيب الطفلة:

ـ لأنك لا تشبه صورك المعلقة في بيتنا..

يحتضنها، يغمرها بقبلاته، ها هي خيوط الصباح الأولى، انتشى متفائلا ونادى المرأة.

- 5 -

(غرفة أخرى في البيت، واسعة، ولكنها مكتظة بالمقاعد، والوقت ليلا من ذات اليوم)

ثمة رجال انتشروا على المقاعد، إنهم أصدقاؤك، هكذا أكدت له المرأة/ الزوجة، يتأملهم، يقترب منه بعضهم يلاطفونه ويتضاحكون، بالكاد يشاركهم ببعض الهمهمات..« إنه لا زال متعبا من رحلته» هكذا تبرر لهم وجومه وسهومه، تأخذ

بيـده إلـى أحدهـم، منفـردا كان، « هـذا أعـز أصدقائـك وأقربهـم إليـك ».. بهـذا تهمـس لـه، يبقـى يواجـه الرجـل الـذي يتأملـه فـي صمـت، يقـرر أن يفعـل شـيئا، يأخـذ الرجـل مـن يـده إلـى مـرآة قريبـــة يواجههـــا معـــه، ويدفـــع إليـه بجـواز سـفره، ويقـول لـه « تأمـل الصـورة وقارنهـا مـع وجهـي، هـل هـي صورتـي؟!».

يتأملـه الرجـل فـي صمـت قبـل أن يعيد إليـه جواز سـفره، ويخرج بطاقتـه الشـخصية ويدفـع بهـا إليـه.. هـو يتطلـع فـي البطاقـة، هنـاك تتربـع صـورة رجـل آخـر مـكان صـورة الصديـق..

هـو يصمـم علـى الاسـتمرار، يقول « سـآتيك بصـورة صغيرتي.. إنهـا علـى الأقـل صورتهـا هـي، ليـس كمـا هـو الحـال لـك ولـي وللآخرين..»

يبتســم الرجــل ابتســامة غامضــة ويقــول: « هكــذا حــال كل الأطفـال مـا دون السادسـة.. أمـا مـا عداهـم فالأمـر يختلـف..».

هـو يصـرخ فـي الرجـل: « لمـاذا نكـون هكـذا.. الصـورة ليسـت صورتنـا، والذاكـرة ليسـت ذاكـرة..»

- 6 -

(الغرفة ذاتها في اليوم الثالث، والوقت مساء)

الصديق تستقبله الزوجة عند الباب، هو يراقبهما وهما يتحدثان همسا للحظات خاطفة، الصديق يتقدم نحوه متأملا الجدران وقد أزيلت عنها كل الصور المعلقة من قبل، الصديق يجلس إلى جانبه ويحاول التسرية عنه، يؤكد له إن هذا هو حال الجميع بلا استثناء، وإنه سيعتاد الأمر سريعا، وسيكتشف إنها صورته فعلا، فلا داعي للقلق إذن..

هو يرفض محاولات الصديق، يصر على أن تكون الصورة صورته، الصديق وقد لمس إصراره يقول: « هناك ثمة حل يلجأ إليه أمثالك ممن لا يصبرون.. لقد افتتح مركز طبي حديث ومجهز، تدخله وخلال ساعتين، تكون الصورة صورتك..»

هو يتساءل: « كيف تكون الصورة صورتي؟»..

الصديق يبتسم: « ثمة جراح تجميل ماهر يجعل وجهك مطابقا تمام المطابقة للصورة.»

هو تنتابه نوبة ضحك هستيري

- 7 -

(الغرفة ذاتها في اليوم الرابع، والوقت صباحا)

هـو يمسـك بالكاميـرا، يـدرب صغيرتـه علـى التقـاط الصـور، يقـف أمامهـا ويطلـب منهـا أن تلتقـط لـه صـورا عديـدة، فـي أوضـاع قريبـة يبـرز فيهـا وجهـه مواجهـا ومـن كلا الجانبيـن، باسـما، حانقـا، غاضبـا، فرحـا. يسـرع إلـى الخـارج بالفيلـم.

- 8 -

(الغرفة ذاتها، بعد ساعة)

هـو يدخـل فرحـا مزهـوا بالانتصـار، ينـادي المـرأة / الزوجـة، يفتـح المظـروف أمامهـا: « كمـا ترين لـم أفتحـه مـن قبـل، هـذه صـور التقطتهـا لـي صغيرتنـا قبـل سـاعة، ستشـاهدين أخيـرا صورتـي أنـا لا صورتـه اللعينـة.»

يخـرج الصـور، يصعـق حيـن يراهـا: الرجـل الغريـب فـي نفـس الأوضـاع والحـالات التـي تـم التقاطهـا!..

- 9 -

(ذات الغرفة وفي ذات اليوم، والوقت مساء)

هـو وقـد اشـتاق إلـى هواجسـه، يحـاول أن يسـتحضر إحداهـا، أن يكـون أجزاءهـا فـلا يفلـح فـي بـادئ الأمـر حتـى يطاوعـه هاجـس.

الهاجـس: ثمـة مـن يطـرق البـاب، الزوجـة تفتـح، الزوجـة ترحـب بالقـادم بحـرارة وحميميـة.. القـادم يقتـرب.. يتبينـه فـإذا هـو الرجـل الغريـب الـذي احتـل صـوره فـي كل مـكان.. الرجـل الغريـب يصافحـه ويعـرض عليـه بـدون مقدمـات أن يتخلـى لـه عـن البيـت والزوجـة والأبنـة!..

هـو ينتفـض، ففـي ذات اللحظـة ثمـة مـن يطـرق البـاب، الزوجـة تفتـح، الزوجـة ترحـب بالقـادم بحـرارة، القـادم يقتـرب، يتبينـه فـإذا هـو الصديـق.. يسـرع إليـه ويطلـب منـه أن يسـاعده فـي مقابلـة الغريـب..

الصديق يبتسم ويقول: « لا داع للمساعدة، فهو هنا..»

يصمت لحظة ليضيف موضحا: « إنه أنت!»..

- 10 -

(خارج كل الأمكنة المغلقة، والوقت مفتوح على مصراعيه)

هو يحتضن طفلته، التي شاركته وحدها التحديق في وجهه الآخر، ينتظر أن تأتيه هواجسه تشمله، تحتويه، يطول انتظاره، يستمطرها، يتوسلها أن تأتي، وحين لا تفعل، يبادر هو فيعيد صياغة إحداها:

يرصدها وهي منطلقة إليه، رصاصة مكتومة الأزيز، بطيئة تأتيه، تخترق صدره، فيرتج إلى الوراء بفعل الاختراق، لكنه لا يتهاوى إلى الأرض ولا يجعل الأرض وسادته، بل يخطو خطوتين قبل أن ينحني إلى الأمام جاعلا من رأسه حربة، تعاجله رصاصة ثانية فيسقط على ركبتيه ويزحف، يواصل الزحف فيما رصاصة ثالثة في الطريق إليه وابتسامة الظفر تطرز شفتيه، وعيناه تحدقان في عين طفلته المترعتين أملا.

• نشرت في كلمات، فصلية أسرة الأدباء والكتاب في البحرين، يونيو 1984

مجرد محاولة لقول شيء بالمناسبة

المشهد الأول:

خارطة الخليج مجسمة، الكاميرا تزحف كما لو كانت تطارد شيئا ناحية الشمال، تصعد بتوجس حتى تصطدم بحقل نوروز، يبدو كالجرح الغائر، ينزف سائله الأسود، يبدأ السائل بتثاقل وبطء يملأ شبة البحيرة التي يشكلها الخليج، يغطيها تماما، ثم يمضي ليكتسح المناطق جنوبا، عابرا مضيق هرمز إلى باب خليج عمان، كل ذلك يتم بصمت، صمت ثقيل قاتل.

المشهد الثاني:

(كاتب السيناريو يجلس إلى مكتب متواضع، يخلع نظارته بأمر من المخرج، حتى لا تعكس الإضاءة عند توجيه الكاميرا إلى وجهه).

الكاتب: أصدقائي.. هذا ليس سيناريو بالمعنى المتعارف عليه، هذه محاولة، مجرد محاولة لقول شيء بالمناسبة، لم يكن بالإمكان كتابة قصة، فالقصة في مفهومي لا بد أن تخلق جوها بأدواتها، بذاتها، وفي ظل هذا الزيت (يشير إلى

المجسم السابق) لا يمكن لأي قصة إلا أن تكون اتكاءة على مثل هذا الحدث.

صوت المخرج: يكفي، سنعود إليك مرة أخرى.

الكاتب: مهلا.. لم أنه كلامي..

صوت المخرج: إذن أسرع..

الكاتب: كما تلاحظون، لأنني قليل الدراية بفن كتابة السيناريو، فانا مضطر لقبول مقاطعات المخرج لي، على أية حال السيناريو بما يمتاز به من تقطيع وانتقاء وتوليف لم يعد أسلوب كاتب التلفزيون والسينما فقط، صار أسلوب المتلقي أيضا، به يضمن الاستغناء عن هضم الحشو والبلاغيات الساكنة، ويستمتع بالمشاهد الدرامية والحركة المتلاحقة.

صوت المخرج: أسرع..

الكاتب: (يسرع في حديثه) بل السيناريو لم يعد شكلا فنيا وحسب، بل صار أسلوبا في النظر إلى الأمور، تخيلها، التنبؤ بها، ابتداء من الحب وانتهاء بالحرب.

صوت المخرج: (في ضيق) أسرع..

الكاتب: (في بطء) إنها مجرد محاولة لقول شيء بالمناسبة.

المشهد الثالث:

طابور طويل من الرجال والنساء والأطفال، طابور طويل جدا يمتد إلى حد الأفق، بيد كل منهم زجاجة مياه معدنية، الزجاجات التي بيد الأطفال من الحجم الصغير، تبدو عليهم أمارات الإعياء من الوقوف الطويل، تظللهم غيمة سوداء، وجو حار خانق، ورطوبة ترشح على أجسادهم، رطوبة لا قبل لهم بها، ذات رائحة لا تخطأ، لا أحد منهم ينبس بكلمة، حتى الأطفال، بين لحظة وأخرى يختلس أحدهم من زجاجته قطرات، بضع قطرات، يبلل ريقه بها، ويحاذر أن يلحظه رجال الشرطة، رجال الشرطة يلبسون خوذا وكمامات ويحملون على ظهورهم خزانات الأوكسجين، ويمسكون بهراواتهم يهددون الواقفين..

تتساقط رذاذات من المطر، يهمهم الطابور، تدب فيه الحياة.. ترتفع الوجوه وتنفتح الأفواه، ثم ترتعد باصقة ما تلقفته.. غير مصدقة.. قطرات زيت من السماء!

المشهد الرابع:

المذيع التلفزيوني: بصفتكم أحد المتفاوضين، هل لكم أن تطلعوا السادة المشاهدين على آخر عرض ناقشتموه في اللجنة الخليجية المشتركة؟

المسؤول: آخر عرض تلقيناه من فرنسا، وهو في الحقيقة عرض مشجع للغاية، إذ مقابل حصولهم على مخزون بئر (بدون صوت) وبئر (بدون صوت) مستعدون لاستقبال أربعمائة ألف مواطن خليجي للحياة بصفة دائمة في منطقة فرساي، وهي منطقة قد زرتها أكثر من خمس مرات، وأعجبت بها جدا فمناظرها خلابة ورائعة و...

المذيع التلفزيوني: (محاولا إعادة المسؤول إلى الموضوع الأصلي) ما هي مزايا هذا العرض عن غيره من العروض؟.

المسؤول: مزايا هذا العرض، أنه أرخص من العروض السابقة، حيث تتبلغ حياة المواطن الخليجي الواحد هناك أربعمائة ألف برميل من النفط، في حين إنه في العروض الأخرى كان سيكلفنا خمسمائة ألف برميل، علاوة على تسهيلات جديدة إضافية.

المذيع: هل لنا أن نعرف بعضها؟.

المسؤول: رغم أن الموضوع لا زال قيد المناقشة والتشاور بين الأشقاء، إلا إنني أستطيع الإفصاح بأن من ضمن التسهيلات الجيدة في هذا العرض، إقامة محطة تلفزيونية ناطقة باللغة العربية مع بث البرامج وعلى الأخص المسلسلات العربية يوميا وفي الساعة نفسها التي تعود عليها مواطنونا الكرام.

المشهد الخامس:

نتوء كالجبل، له قمة سوداء، رويدا رويدا تبتعد الكاميرا ليبرز إلى جانبه أكثر من نتوء، تبتعد الكاميرا أكثر، تصغر النتوءات ولكنها تنتشر على مساحة أكبر، المساحة هي صفحة خد فتاة في السابعة عشرة من عمرها، واقفة في الطابور الطويل جدا.

المشهد السادس:

شخص يلبس بالطو لم يعد أبيض، تتدلى من رقبته سماعة الأطباء، يخلع نظارته بناء على أوامر المخرج ويواجه الكاميرا:

الطبيب: هذه البثور التي رأيتموها على خد الفتاة، هي نتيجة تفاعل الأتربة والغبار مع الغاز المتولد بسبب الحرارة عن الزيت الذي غطى البحر.

صوت المذيع: ما هي مخاطر هذه البثور؟

الطبيب: في الحقيقة، لا رأي قاطع حتى الآن، أنت تعلم إنها حالة نواجهها لأول مرة، ولم يتسن لنا في أوضاعنا هذه إجراء تجارب مخبرية توصلنا إلى نتائج حاسمة بشأنها، ولكن ما ننصح به في الوقت الحاضر هو تحاشي البثور،

رغم صعوبة مثل هذا التحاشي في الواقع، واستعمال المرهم، والذي نرجو أن يتم الاقتصاد في استخدامه، كاقتصادنا في شرب المياه، فالكمية محدودة، والتوزيع يتم وفق قواعد صارمة لضرورات لا تخفى على أحد!

المشهد السابع:

الكاميرا في حركة سريعة كما لو كانت ستشق سطح الزيت.. الزيت يغطي الشاطئ، تتوقف الكاميرا قريبة جدا من السطح لتبرز سماكته، تخثره، تقذف حصاة، لكنها لا تغوص بسرعة، وإنما تنزل ببطء، ولا تنداح لها دوائر، بل يظل السطح ساكنا.

تصعد الكاميرا، تبدو على البعد بواخر عديدة عاجزة عن الحركة، وليس هناك ثمة طير نورس، وحتى الأفق المظلم تحت ثقل الغيمة التي لا تحركها ريح، يتمدد هذا السطح الأسود الساكن، ثقيلا راكدا، من بعد تتصاعد غازات ملونة، ولا يبدو هنا أو هناك ثمة شيء يتحرك، سكون وصمت وهدوء ينتظر عاصفة.

(يمكن مزج صور من البحر في أحسن حالاته وصحوه يتصارع مع السواد القادم، حتى يسيطر الأخير ويسود).

المشهد الثامن:

عودة إلى الطابور الطويل جدا، حركة الكاميرا تمر بسرعة به، تستعرضه، وجوه مملوءة بالبثور السوداء، متداعية بإعياء وباستسلام غريب كالمنومة، تستمر الكاميرا لنصف دقيقة في سرعتها، ثم تخففها حتى تتوقف عند شاب وسيم لم يسلم من البثور، لكنه بجسمه الرياضي يبدو أكثر تحملا من الآخرين، وزجاجته لم تتجاوز مياهها النصف إلا بقليل عكس البقية، الذين لم تتبق في زجاجاتهم إلا قطرات معدودة، تقترب منه الكاميرا أكثر يلتفت إليها، يتطلع بدون اهتمام، لا تعبير على وجهه.

صوت من خارج الكادر: كيف حصلت على مكانك في هذا الطابور الطويل؟

الشاب: رغم إنني أسكن قرب المطار!، فقد اضطررت أن أسير على قدمي خمسة عشر كيلومترا حتى حصلت على هذا المكان.

الصوت: هذا يعني أنك ستعود تمشي المسافة مرة أخرى عائدا؟

الشاب: وببطء كما تلاحظ، فكل ربع ساعة نتحرك خطوة أو خطوتين!

الصوت: لماذا تصطفون في هذا الطابور؟

الشاب: (يبدو على وجهه الاستغراب لأول مرة، يتطلع إلى حامل الكاميرا، يبدو أن الآخر يشجعه على الحديث) لا أصدق أنك لا تدري، من أي جحر خارج أنت؟

الصوت: (يحثه) هيا.. أخبر المشاهدين، أنهم قد لا يدرون!

الشاب: (يحملق في الكاميرا، تختلج شفتاه قليلا، تعاوده لا مبالاته) نحن ذاهبون إلى الخارج، ستحملنا الطائرات إلى إحدى الدول الأوربية، سنستوطن هناك بعد هذا الذي حدث.

الصوت: ماذا تحمل؟، لا أراك تحمل متاعا أو شيئا.

الشاب: (يرفع زجاجة المياه المعدنية وجواز سفره) ما عدا هذين لا يحق لك حمل شيء.. لعلمك سوف نشحن حتى في الأماكن المخصصة للأمتعة، هكذا قالوا لنا.

الصوت: ماذا كنت تعمل؟ ما هي اهتماماتك قبل أن يحدث ما حدث؟

الشاب: (تغرورق عيناه) أنا.. كنت موظفا في أحد بنوك الأوفشور، أتقاضى راتبا كبيرا، كنت لاعب كرة مشهورًا أيضا، لي علاقات عديدة، بجوازي هذا تم تسجيل آلاف الآلاف من الأسهم (يتنهد بحسرة) كانت الدنيا مقبلة علي.. الفتيات تملأ مفكرتي أرقام تليفوناتهن، وفي سيارتي قضيت ساعات لا تنسى (يتنهد) كانت الدنيا مقبلة علي..

(يمكن عرض لقطات سريعة أو بأسلوب اللقطات الثابتة المتتالية للشاب في أوضاعه وحياته السابقة).

المشهد التاسع:

منخفض من الأرض بين جذوع نخيل، يبدأ الزيت في التسرب، مغطيا الأعشاب الطفيلية، حتى لا يبقى منها شيئا، ترتفع الكاميرا إلى رؤوس النخيل فإذا هي محروقة منذ زمن، بلا سعفات.

المشهد العاشر:

خبير من اللجنة المنحلة لحماية البيئة البحرية، ترمش عيناه باستمرار بشكل لا إرادي، يفشل المخرج في جعله يتحدث مواجها الكاميرا، فيصوره وهو يتحدث في وضع جانبي.

الخبير: في الحقيقة، لا زلت حتى هذه الساعة غير متأكد من سمك طبقة الزيت التي تغطي الخليج كله الآن، فبعض التقارير تقول إنه نصف قدم وأخرى تقول بأن سمكه بلغ قدما كاملا، وتقرير يقول إنه بلغ في بعض المناطق أكثر من قدمين.

الصوت: وما الفارق بين هذا وذاك ؟

الخبير: (كمن يتلذذ للسؤال بهزات رأسه) الفارق كبير،

بحجم سمك طبقة الزيت تكون الخطورة، إذا كان نصف قدم مثلا فالأمل كبير في أن يتبخر جزء كبير منه ثم يسهل امتصاص المتبقي بوسائلنا.. كما إن هذا السمك ربما لا يشكل خطرا على الكائنات البحرية إذا تم امتصاصه بسرعة.

الصوت: وإذا كان سمكه قدمين أو أكثر؟

الخبير: عندها لا تنفع كل المحاولات.. مثل هذا السمك يعني امتناع الأوكسجين عن الكائنات البحرية و...

الصوت: ماذا عن الكائنات غير البحرية.. ماذا عن الناس؟

الخبير: (في حرج شديد) في الحقيقة أنا لست خبيرا إلا في الكائنات البحرية.. آسف.

المشهد الحادي عشر:

الكاتب: عفوا لتدخلي، إنها فرصة لأن أقول شيئا، ورغم إن ذلك يعتبر خروجا على قواعد السيناريو، فإنني وبحكم اهتماماتي لا أملك إلا أن أتدخل هنا وأبدي ملاحظة، هي في الواقع ليست ملاحظة، هي صورة أرجو أن يستطيع المخرج تحقيقها.

صوت المخرج: أسرع.

الكاتب: (لا يهتم لاستعجال المخرج ويواصل كما بدأ) الصورة

أن يتم التوليف بين ما قاله خبير البيئة البحرية بخصوص طبقة الزيت وبين سمك (طبقة) الاستهلاك ومظاهر الرخاء الجوفاء التي غطت على أحاسيس الناس وبلدت مشاعرهم، فما عادوا يهتمون بما يحدث للآخرين، زادت البلادة فلم يعودوا يهتمون بما سيحدث لهم غدا، صاروا كقطيع من النمل خدره السكر الكثير و...

صوت المخرج: (مقاطعا) يا أستاذ، هذا سيناريو لا يحتمل صورك البلاغية هذه وتشبيهاتك.

الكاتب: (مواصلا بعناد) ما حدث قبل طوفان الزيت هذا كثير وكان بإمكانهم أن يفعلوا شيئا للآخرين، لأنفسهم، ولكنهم استمرأوا العيش بلا مسؤولية.

صوت المخرج: يا أستاذ لا تعمم، ليس كلهم عاشوا رخاء ورفاهية كما تصورهم.

الكاتب: دعنا نسأل صديقنا عالم الاجتماع الذي يجلس معنا (الكاميرا تدور في الأرجاء، فلا تجد أحدا، فتعود إلى الكاتب).

الكاتب: (يتحدث كما لو كان عالم الاجتماع) في الواقع أن صديقي الكاتب، لم يقصد أن الجميع عاش في رخاء ورفاهية، ولكن الجميع عاش أمراض الرخاء، بمعنى أن الرخاء قد لا يكون شاملا، لكن أمراضه هي التي تسود حتى

بين الطبقات الفقيرة، فالمضاربات بالأسهم مجرد مثال بارز، والأمثلة الأخرى كثيرة تبدأ من الاهتمام العفوي باختيار لون طقم الصحون وتنتهي بالتطلع إلى لون سيارة مشتهاة..

صوت المخرج: يا أستاذ اختصر.. هذا سيناريو..

الكاتب: (يحاول أن يكبت ضيقه من المخرج) تستطيع أن تستفيد من الأرشيف، أعرض مشاهد بدلا من مقاطعتي، مشهد العامل الهندي الذي يعود إلى قريته النائية المحرومة من الكهرباء ولا يصلها إرسال المحطات حاملا تلفزيونا ملونا، مشهد صفوف الأزواج الذين يجلسون عند عتبات البيوت في سيريلانكا يحتسون الخمر صباح مساء، ينتظرون حوالات النقود من زوجاتهم العاملات في الخليج، والأطفال بلا أمهات، مشهد الأراضي الزراعية التي هجرها الفلاحون في مصر وسوريا وغيرها يلهثون وراء السراب في المياه الدافئة.

صوت المخرج: يا أستاذ.. يا أستاذ..

الكاتب: إن مجتمعا كمجتمع الخليج لم يشهد له العالم مثيلا في يوم مضى، ولن يشهد..

صوت المخرج: (صارخا) ستوب..

المشهد الثاني عشر:

جولة سريعة بالكاميرا في شوارع البنوك والمحلات التجارية الكبرى، السيارات معطلة بشكل فوضوي، بعضها توقف عند

تقاطع طرق، البعض الآخر صعد إلى الرصيف.

الكاميرا تدخل سوبر ماركت، مجموعة من العمال الآسيويين تفتش بين المحتويات عن زجاجة مياه معدنية، تبعثر العلب، تقذف بها إلى مختلف الجهات حنقا، تكسر زجاج إحدى الواجهات الكبيرة.

وجه عامل منهم، قريب من الكاميرا، غاضب جدا، يصرخ، يبدأ يلاحق حامل الكاميرا، ويركل كل ما يعترضه.

المشهد الثالث عشر:

مسؤول يواجه الكاميرا، بعد أن ينزع كمامته ويشير للمخرج، أمامك ثلاث دقائق فقط.

المسؤول يبدو كمن يستمع إلى سؤال لا يسمعه غيره.

المسؤول: إجابتي عن سؤالك بكل بساطة، أن كل دولة مسؤولة بالمقام الأول عن رعاياها، إن الذين وفدوا إلى البلاد للارتزاق تتحمل مسؤولية رعايتهم في مثل هذه الأوضاع حكومات دولهم، ذلك أمر بديهي، ونحن نعطي الأولوية لأبناء الوطن، والموقف كما تلاحظ صعب للغاية، فما من وسيلة غير الطائرات عندنا، والبحر لم يعد صالحا للملاحة، ولو تحلى الوافدون الأجانب بالصبر وضبط النفس قليلا لجاء دورهم. (يتوقف المسؤول كمن يستمع إلى سؤال

لا يسمعه غيره، ثم يواصل بعد ذلك) في الحقيقة، وكما تعرف عن الأوربيين والغربيين بشكل عام، هم أكثر الشعوب رعاية من قبل حكوماتهم، ولهذا يكونون أول المهجرين من أي منطقة تتعرض للأخطار، ونحن هنا لم نقرر الهجرة الجماعية إلا في اليومين الأخيرين، وذلك بعد أن تأكدت لنا استحالة الحياة هنا، لقد توقفت محطات تحلية المياه وتسرب الزيت إلى كل الآبار الارتوازية، ونحن في الحقيقة نوزع على الجميع حتى العمال الآسيويين زجاجات المياه المعدنية، بواقع زجاجة واحدة لكل فرد كل أربع وعشرين ساعة، أنا مقدر صعوبة الموقف، وحرارة الجو، معذرة (يفتح غطاء زجاجته ويرشف رشفة صغيرة).. أنت ترى كل شيء غدا مشلولا، لا ماء، لا كهرباء، لا بنزين للسيارات.. لا.. لا شيء سوى الطائرات تحمل الأفواج بعد الأفواج.. لم يعد هذا الخليج صالحا إلا لاستخراج النفط الخام، معذرة لا أستطيع البقاء هنا أكثر (يضع الكمامة على فمه وأنفه ويدير للكاميرا ظهره خارجا، على ظهره يحمل خزان أوكسجين أنيق).

المشهد الرابع عشر:

لقطات عامة لشوارع مهجورة، محلات مبعثرة محتوياتها، سيارات متوقفة في كل مكان، لا شيء يتحرك.. حتى ولا قطة تبحث بين القمامة والبقايا المتناثرة في الزوايا.

لقطات عامة للبحر الذي تخثر سطحه، أسود حتى الأفق

الحالـك، لا حركـة فـي أي مـكان.

كل اللقطـات تبـرز آثـار الإنسـان الـذي غـادر علـى عجـل.. بـلا أمـل فـي العـودة.. وصمـت ثقيـل.. وقفـر لا نهايـة لـه.

المشهد الخامس عشر:

الكاتب في نفس موضعه في المشهد الثاني.

الكاتـب: مـا شـاهدتموه ليـس هـو مـا أردت أن أقولـه، فرغـم إنهـا محاولـة لقـول شـيء بالمناسـبة، إلا أن الهاجـس الـذي فـي نفسـي لا زال أفضـل بكثيـر مـن هـذه المحاولـة.. فإلـى جانـب أن المخـرج لـم يفهمنـي، فإنـه أيضـا لـم يسـتطع إبـراز مـا هـو وراء هـذه المشـاهد، توقـف عنـد سـطحها، وكان مزجـه لتكويـن الصـور السـينمائية مفتعـلا.. وتلـك هـي مشـكلة الإبـداع عندمـا يكـون مشـتركا..و...

صـوت المخـرج: (محتجـا) تكتـب سـيناريو لأول مـرة وتبـدأ فـي التنظيـر. ومتـى؟.. فـي الوقـت الـذي تغطـي بقعـة الزيـت أجسـاد النـاس فـي الخليـج!..

الكاتـب: (مبتسـما بانتصـار) هـذا هـو الفـرق بينـي وبينـه، أنـا أطمـح إلـى عمـل فنـي يتجـاوز الأحـداث، لا يتكـئ عليهـا.

صوت المخرج: (مقاطعا) اللعنة..

الكاتـب: (مسـتطردًا) حتـى العنـوان، كنـت أفضـل أن يكـون «عندمـا يبلـغ الزيـت الزبـى».. ولكـن المخـرج أصر علـى العنوان الآخـر.. كمـا إننـي كنـت أتـوق كثيـرا إلـى أن أختـم هـذا العمـل بمشـهد لرجـل بحـر عجـوز يجلـس عنـد الشـاطئ ينظـر بحسـرة، ويرفـض الانضمـام إلـى الطابـور الطويـل وهجـر الوطـن، ومشـهد آخـر لفـلاح يسـند ظهـره إلـى جـذع نخلـة محروقـة ويرفـض أن يتـرك أرضـه.. كل ذلـك كان مـدار خـلاف ونقـاش.. كان المخـرج يصـر علـى أن هـذا كلـه قـد يصلـح للقصـص ولكنـه بالتأكيـد لا يصـح لمشـاهد سـيناريو، أصارحكـم القـول: آسـف جـدا لأننـي اشـتركت فـي هـذا العمـل..

صوت المخرج: (غاضبا، مقاطعا) اللعنة ألف مرة.. ستوب.

الكاتـب: (مواصـلا حديثـه الـذي لا يسـمع الآن، فيمـا بـدا السـائل الأسـود يمـلأ الشاشـة مـن أسـفل، رويـدا رويـدا، ليخفـي صـورة الكاتـب فـي النهايـة).

• نشرت في كلمات، فصلية أسرة الأدباء والكتاب في البحرين، خريف 1983

• قـام أميـن صالـح بإعـداد سـهرة تلفزيونيـة مـن وحـي وأجـواء هـذا النـص وأخرجهـا لتلفزيـون البحريـن عبـد الله يوسـف، تحـت عنـوان (العطـش) فـي الثمانينيـات مـن القـرن الماضـي.

حين يحين الحين

تطامن منه الرأس وزاغت العينان فيما الخدر يصعد إليه من قدميه اللتين انعدم فيهما إحساسه بالأرض، واقف هو أم محمول؟، خدر يحس سريانه كسائل يملأ وعاء، ذراعاه لا زالتا تطوقان صدره وتمنعان طوفان الأجساد عن اختراقه وهرس قفصه الصدري وطحن قلبه الذي تسارعت خفقاته ضاخة دفعات دم متتالية في محاولة مستميتة لتغذية دماغه بالأوكسجين والحيلولة دون حدوث « الصدمة» ودخوله في غياب الوعي.

تنفس بإجهاد واقتصاد واستدعى كل حصيلته في الإسعافات الأولية التي يعرفها، وواصل تجذيفه يصد كتل الأجساد التي يتداخل لحمها وعظامها وأعضاؤها وأنينها ولهاثها ولعابها وعرقها وصرخاتها الخرساء وتوهان نظراتها بتوسلات لا مجيب لها، ساندا ظهره إلى الجدار بقوة رافضا التزحزح من موقعه، حيث من حوله تتهاوى قامات وهي تدور حول نفسها منزلقة إلى الأسفل كما لو دوامة تدومها تشدها تسحبها فتنفلت الأيدي من عقال الأيدي ويختفي أمام بصر الأحبة أحبة بالتياع موجع يائس ويستعر في النفس تنازع مرير بين حب الآخر وحب الأنا، بين مد يد العون اللامجدي والمهلك،

وبين تسوير الذات والاستبسال في الدفاع عن بقائها منتصبة واقفة مغروزة مصلوبة..

موجات تتدفق تتلاحق تتلاطم في مدد لا ينضب، تنعصر وتصهر وتنصهر الأجساد فيها، وتتشقق الثياب وتنسحق وتتمزق ويبزغ العري من بينها ثم يسطع وينتشر ويعربد فلا تقوى عليه مقاومة ولا ترنو إليه التفاتة وسط هذا التراص والتلاحم اللاحم، إلا هو الذي يعي عريه الآن رغم كل ما فيه ومن حوله ومن بينه تندلق كتلة لحمية لا هوية لها تنطلق مخلفة على أضلعه مواضع مواجع المزاحمة فلا يقوى على متابعتها، بالكاد يتنشق نفسا مثقلا برائحة الاختناق.

هلع وفزع وصراع دائر من حوله، ورجل عظيم الجثة بالقرب منه تعتريه هستيريا مفاجئة يحرر ذراعيه الضخمتين المعروقتين فيهوش بهما دافعا مبعدا عنه بلطمات مدوية دموية الأجساد المحيطة به فيما تتلقى الوجوه صفعاته القاتلة بعضها باحتجاج ضاج عاجز وبعضها باستسلام وانصياع صامت فتتكاثر من حول الرجل الأجساد المثقلة بالموت والإغماء والانهيار فيخور هائجا رافضا حتفه الماثل وهو يعتلي فراشا من الجثث ممددا جسده عليها مجاهدا بضراوة المحافظة على توازنه فوق أمواج اللحم المتكسرة المتهالكة التي سرعان ما انهارت وانفتحت من جديد دوامتها تحت الرجل الذي بدأ ينزلق فيها رغم تشبثه بما يعتليه ويحيطه

مـن أجسـاد غـدت رخـوة لزجـة بنزيفهـا وشـهقات نزعهـا الأخير، ينتفض الرجل انتفاضـات عنيفـة بلـوح بذراعيـه لاطمـا هـذا وذاك فتنالـه هـو المراقـب المتمتـرس بسـكونه وجلـده لطمـة تدمـي لـه شـفتيه فيـكاد يفقـد وعيـه فيعـاود أخـذ نفـس عميـق هـادئ وهـو يشـهد ذبـول الرجـل وهمـوده ودوامـة الجثـث تحـف بـه وتغيبـه فـي ثناياهـا الآدميـة.

يغالـب رغبـة الاستسـلام العارمـة التـي تدمـدم فـي أوصالـه المتعبـة المخـدرة ويشـرأب ملتفتـا متطلعـا نحـو الاتجـاه الـذي لا زالـت تتوافـد منـه الجمـوع بـلا انقطـاع متعاصـرة متآصـرة، مسـوقة مجروفـة بشـهوة الالتصـاق والانسـحاق، يديـر وجهـه بالـكاد نحـو الاتجـاه المعاكـس فـإذا برائحـة حبيبـة للقلـب مسـكونة فـي أعمـاق النفـس مغرقـة فـي دهاليـز الذاكـرة العتيقـة تلفحـه وتحتويـه.. وجـه مـن خلـف الغمـام يسـتبين ويتشـكل رويـدا حتـى يشـع حضـوره ويتسـع وجـوده ويغيـب مـا عـداه فتنفتـح دروب الطفولـة علـى صـوت أمـه وهـي تحتضنـه، تشـرع لـه صدرهـا يهمـي علـى ثديهـا الـذي مـا شـبع مـن حليبـه قـط ولا انفطـم.. تمسـح بيدهـا الحانيـة جبينـه وتمسـد خصـلات شـعره مترنمـة بتهويمـة خالطهـا الأسـى منـذ أن رحـل عنهـا الـزوج، وتيتـم الأبـن.

يرفـع ناظريـه ليتملـى مـن وجههـا الحبيـب فـإذا هـي زوجتـه فيخاصرهـا ويطوقهـا بسـاعديه مرتعشـا بريـح إلهيـة ولـذة مفعمـة

فائقة يستشعرها حين يكون في حضنها، لاجئا إليها من العالم، خالعا ملقيا على أعتابها ثياب همومه ومشاجب كدره ودفاتر شواغله، مستدفئا بأنفاسها مستظلا بوارف أعطافها مستبردا بشلال عطاياها وحناياها، مرتحلا أبدا إليها متوحدا فيها.. فما أن يهم بتقبيلها حتى تتناءى عنه الوجنتان والشفتان وتتماوج هيئة الوجه فينفلق عن ابنته بهجة مهجته وخفقة فؤاده ونشوة وجوده وتجسد أمله وتفاؤله ومرآة مستقبله وعنفوان حياته، فيرتجف فرحا وحبورا إذ تلامس أناملها دقيقة التكوين وجهه، وتجتاحه طمأنينة غامرة: أن لا شيء بعد الآن يهم....

ينتبه على صوت الصمت السائد، يلتفت حوله فإذا بالمكان خال تماما من غيره، مقفر من سواه على امتداداته في كل صوب، يحاول أن يمد ذراعيه فيصدم فراغات مليئة بالأجساد التي غادرت وبقيت أمكنتها مشغولة بها، يتلفت فإذا تحيطه وتلم به من كل حدب حدقات مشرعة بنظرات استغراب ودهشة وفضول واستنكار واحتقار وازدراء وريبة واتهام وسخرية وإشفاق واشمئزاز وغضب ولامبالاة ولا رؤية، وإذ يعي عريه الفاضح يطأطئ برأسه هاربا يتجنب النظرات المحدقة به، مفكرا أن يتكوم حول نفسه ويتكور كالجنين، يلحظ كتل الأجساد ملمومة في الجزء السفلي من الساعة الرملية العملاقة التي تحتويه وإياهم، والدوامة تحت

قدميـه مازالـت تـدوم دائـرة فاغـرة فاهها بانتظـار سـقوطه فيهـا..
يسـتجمع قـواه ويفـرد ناشـرا ذراعيـه بعـزم كمـا لـو كان سـيطير
.... فيسـمع صـوت تكسـر الزجـاج.

• نشرت في كلمات، فصلية أسرة الأدباء والكتاب في البحرين، العدد 16/1992.

خواطر جسد

أخيرا توقف الجهاز، بعد أن ظل لثلاثة أيام تردد أنفاسه في صدره فيعلو وينخفض بوتيرة رتيبة، وساد صمت عميق غرفة الإنعاش، فيما تعالى في الردهة الخارجية نشيج زوجته و ابنته الصغيرة التي ارتاعت لبكاء أمها.

أما هو، فلم يمد يده ليزيح الملاءة البيضاء حين غطت الممرضة بها وجهه، رغم إحساسه المفعم بالقدرة على فعل ذلك، شعر براحة لذيذة تنتشر كالذبذبات على كافة أعضائه حتى المصابة: مؤخرة الرأس والكتف والقدم اليمنى، فتمتص منها كل التعب وكل الألم، وأن الفراش صار له حضنا دافئا يغوص فيه بلا نهاية.

كان بإمكانه أن يزيح الغطاء عن وجهه، ويرسل نظراته الضاحكة إلى ابنته الواقفة قبالة الباب المفتوح، فتنفلت إليه فاتحة ذراعيها كما تفعل عندما توقظه كل صباح، لكنه ولسبب لا يدركه قرر أن يؤجل ذلك، وأن يستسلم لهذه الرقدة التي لم يعهدها قبلا، معللا نفسه بأنه ما دام يمتلك القدرة على إزاحة الغطاء، فلا ضير أن يهنأ قليلا براحة كهذه، يتقين هو أنها لن تتكرر!

أما زوجته، فلا بد أنها ستقدر له وضعه بعد الحادث الأليم، وبعد أن تصلبت رئتاه من شهيق الجهاز وزفيره الرتيبين لثلاثة أيام، وسيمد يده حينذاك ليمسح دمعها ويذكرها بما قاله لها ذات مرة من أن بكاءها يجعل وجهها مضحكا، خاصة بقمة أنفها، التي سرعان ما تحمر وتصير كرزة ناضجة!

يحاول أن يبتسم فلا تطاوعه شفتاه الململمتان في ضمادة ثخينة، ولكن لا يعير الأمر اهتماما ولا يعاود المحاولة، فيما تظل زوجته تنتحب بحرقة، وتواصل الأبنة الصغيرة نهنهات قصيرة متتالية بعد ما تعبت من مواصلة البكاء، ولكنه أقنع نفسه وكما قرأ ذات مرة، بأن هذا البكاء يساعد من هم في عمر ابنته على تقوية الحبال الصوتية!

يدخل ممرضان يسحبان سريرا ذا عجلات، يميز هو ذلك من الصرير واصطدام السرير بالباب ثم ارتطامه بالسرير الذي يرقد فيه، حتى حاذاه على طوله، وامتدت الأيدي تنقله بلا مبالاة إليه، ومن ثم تحركه ليصطدم السرير مرة أخرى بالباب، ثم يمضي باهتزاز خفيف في الممر الذي يتذكر سقفه الأبيض المحمول بأسلاك معدنية متقاطعة، وبإضاءات كهربائية متباعدة.

وفيما كان يسمع خطوات زوجته التي يميزها، وهي تتسارع خلفه تحاول اللحاق به، يغمره إحساس مريح لأنه الآن في

منـأى عـن نوبـات العصبيـة التـي تجتـاح زوجتـه كثيـرا فـي الآونـة الأخيـرة ممـا يجعلـه يفضـل البقـاء خـارج البيـت حتـى لا يفلـت مـن زمـام بـروده الـذي صـارت تعايـره بـه، بينمـا هـو الحافـظ للأسـرة الصغيـر بقاؤهـا.

عنـد إنعطافـة حـادة، شـاهدت الطفلـة رأس أبيهـا يرتطـم بحافـة الجـدار فيرتـج جسـده وتنفلـت قدمـاه خارجـة مـن المـلاءة البيضـاء، فتشـد الطفلـة يـد أمهـا وتشـير إلـى الأب المسـجى، والـذي غيبـه بـاب المصعـد وهمهمـت:

ـ لقد تحرك بابا..

أمـا هـو فقـد ارتجـت الدنيـا بـه، وانفتـح تحـت قدميـه سـرداب مـن الضبـاب الكثيـف وبـدأ ينزلـق فيـه رويـدا رويـدا حتـى غطـاه، وتنـاءت مـن حولـه الأصـوات وماتـت.

واصـل الممرضـان دفعهمـا للسـرير فـي ممـرات المستشـفى الطويلـة حتـى انتهيـا إلـى قاعـة كبيـرة، حيـث أوقفـا بـه فـي جانـب منهـا ومضيـا إلـى مكتـب وقدمـا للجالـس وراءه اسـتمارة التسـليم ليوقعهـا، والـذي اغتنمهـا فرصـة لإطـلاق طرفـة ضحـك لهـا الممرضـان وهمـا يغـادران.

بعـد قليـل أحـس الجسـد المسـجى بالبـرودة تسـري فـي أطرافـه، أراد أن يمـد يـده باحثـا عـن لحـاف ثخيـن، لكنـه تـردد وتـرك الأمـر، وتذكـر أن أي تغييـر فـي وضعـه سـوف يفسـد عليـه هـذا

الاسترخاء اللذيذ، وهو الذي دفع غاليا ليظل هكذا، قاوم إغراء عناق صغيرته وزوجته من أجله، فصبر واستكان.

بعد قليل، تذكر بأن طبيبا لم يفحصه منذ أن تراكضت الممرضة خارجة من غرفة الإنعاش للخارج ثم عادت ممرضة أخرى تبدو أكثر منها خبرة وأكبر سنا، لتوقف الجهاز الذي كان يفح فحيحا ملحاحا، وغطت وجهه ببرود دون أن تكلف نفسها جس نبضه، وفكر أنه من المستحيل أن تمضي الأمور هكذا، وأنه لابد من أن يلتفت الطبيب المسؤول لهذه الغلطة ويأتي سريعا للتأكد والتوقيع في خانة الطبيب المناوب التي حتما بقيت دون توقيع حتى الآن.

وجاءته أصوات خطوات سريعة لتؤكد له صحة توقعاته، ودخل رجل وقال للكاتب وهو يشير إلى الجسد المسجى:

ـ أين أوراقه؟

ـ لماذا؟

ـ الطبيب لن يستطيع التحرك من مكتبه، هو بانتظار مكالمة مهمة، يطلب الأوراق للتوقيع عليها وختمها هناك.

ارتجف الجسد، وأراد أن ينهض ويصرخ: فلتذهب الانبطاحة الرائعة هذه إلى الجحيم، لكنه تراجع سريعا، وفكر أن الأمل كبير جدا وأن الدرب في أوله ما يزال، فاستنام للفكرة وقرر

أن يظل في وضعه المريح!

دخل شخصان، عرف الجسد أنهما كذلك من خطواتهما، إذ صار الآن يعتمد على سمعه أكثر، تقدما نحوه، أزاحا عنه الملاءة البيضاء ودفعا به إلى طاولة عريضة طويلة ورفعاه إليها، كان البرد قد ازداد حتى أحس بأن فكيه المضمومين بدآ يرتعدان، وشرعا في تقييد قدميه أولا ثم يديه، حتى بلغا فكيه فشدا عليهما الضمادة أكثر، وبينما هما يفعلان ذلك، جاهد حتى استطاع أن يفتح عينيه على سعتهما ويتطلع إلى وجهيهما بدهشة، أنتظر أن يلتفتا إليه فيفزعان، يصرخان: إنه حي ..إنه حي، وينتهي هذا الكابوس، لكن كانت خيبته كبيرة حينما امتدت يد أحدهما بلا مبالاة واسبلت جفنيه، قاوم الخيبة وقال لنفسه إن عليه أن ينظر للجانب الإيجابي لهذا التصرف، فربما أقدم الممرض على ذلك لاعتقاده بأن أحدا لم يسبل له جفنيه من قبل، لذا جاهد ليفتح عينيه ثانية وحرك بؤبؤهما نحو الممرض، لكن هذا عاد لإغلاقهما دونما كلمة، ففتحهما الجسد بسرعة وقبل أن ترتد يد الممرض، فارتجفت شفتا الممرض غضبا وقال:

ــ يا لهم من مرضى متعبين، حتى عندما يموتون يواصلون ازعاجنا.

ومع ذلك أبقى الجسد عينيه مسلطتين على الممرض مفتوحتين

محملقتين على سعتهما، آملا أن يلتفت الممرض إلى غرابة ما نطق، إذ لا يمكن لمريض أن يواصل الازعاج إذا مات!، لكن الممرض الآخر فاجأه بلطمة على عينيه صارخا به:

ــ إن حاولت مرة أخرى حطمت لك ما تبقى من هذه الجمجمة المتهشمة.

سارع الجسد فأغمض عينيه، وخشي أن يكون قد خدع نفسه وضيع عليه فرصة الحياة الثمينة هناك في غرفة الإنعاش وأمام زوجته وابنته، إذ كان بإمكانه حينها أن يرفع الغطاء ويعلن للجميع أن الحياة لم تفارقه، أما الآن وقد تم تقييده... لكنه تمالك نفسه وفكر بأن لا وقت للندم الآن، وإن عليه أن يتدبر أمره في الفرص القليلة المتبقية أمامه، وإن هذه الأخطاء التي ترتكب بحقه سيحين أوان إيقاع المحاسبة والجزاء على مرتكبيها، عندها لن يرحمهم جميعا، ابتداء بذلك السائق الأرعن الذي سحق رأسه بينما هو يسير مطمئنا على الرصيف، مرورا بالممرضة التي لم تكلف نفسها التأكد من نبضه، والطبيب الذي فضل انتظار مكالمة على تقرير حياة إنسان، وانتهاء بهذين الوحشين اللذين لا يرعيان للمرضى حين يموتون حرمة فيصفعونهم!

وبينما كان الجسد بعد ساعة يشحن في سيارة اسعاف باتجاه المقبرة، كانت صورة صديق له تذكره بجدال وقع بينهما

حـول مـدة بقـاء الميـت يسـمع ويفكـر، إذ أكـد لـه صديقـه بـأن جسـد الميـت وحواسـه تظـل بحكـم العـادة تعمـل بصـورة آليـة لمـدة أربعـة وعشـرين سـاعة، وهـا هـو الآن وقـد دب اليـأس فـي نفسـه حيـث مـا تبقـى مـن فـرص لا يضمـن معهـا أي نتيجـة، فمـن يخسـر البدايـات ليـس عليـه أن يعـول كثيـرا علـى النهايـات.

وفيمـا كان الجسـد يخـرج بأيـدي الممرضيـن مـن السـيارة، أحـس مـن بيـن مجموعـة أيـدي تتناهبـه بيـد صديقـه تلامـس يـده وتشـد عليهـا وبصوتـه المتهـدج يهمـس فـي أذنـه:

ــ إن كنـت تسـمعني، فحـرك لـي أي جـزء منـك، عندئـذ سـأمنعهم مـن دفنـك حتـى تنتهـي الحيـاة منـك تمامـا.

لكنـه وقبـل أن يقـرر أي جـزء منـه يحركـه كانـت أيـد أخـرى كثيـرة تخاطفتـه، ودفعـت صديقـه المتهالـك بعيـدا، كأنمـا هـي فـي عجلـة، تريـد أن تنتهـي مـن هـذه المهمـة الثقيلـة علـى النفـس بأسـرع مـا يمكـن... بينمـا تخـاذل الصديـق علـى شـاهد قبـر وبـدأت دموعـه تخطـل لـه رؤيـة النعـش وهـو يمضـي عنـه بعيدا.

• 1991 ، غير منشورة

الرغبة تحت شمس ترتعش!

شمس ترتعش من البرد، صبي بأعوامه التسع يمسح مقدمة سيارة فارهة، يداه مزروقتان من برودة مزق القماش المبلول، المسح يستمر، المسح أكثر، أقوى.... إزالة لطخات الوحل اليابسة، الدفء يسري في العروق، امسح أكثر تدفأ أكثر..

وأمنية في القلب الصغير أن يستقر هذا الجو على صحو دائم، المطر يقطع الرزق كما يقول زملاؤه.

محظوظ، سيارتان في هذا الصباح والغيوم لم تزل تنازل الشمس، هو لا يساوم كثيرا، مائتا فلس أقل لغسل السيارة وتنظيفها من الداخل والخارج، الزجاج والأبواب والأرضية، ليكن، فمن هو حتى ينافس أولئك الأشداء إن لم يقبل، لكن له طلب بسيط: أن يبقى الأمر سرا بينه وبين أصحاب السيارات، فلو عرف الآخرون سيكون الضرب والطرد نصيبه.

امسح أكثر تدفأ أكثر، تحمر يده، تكاد تتفجر دما، لا يهم، الأم تقول: ثمانمائة فلس لصبي مثلك أجر عادل، أنت أقل خبرة وأبطأ من غيرك.

انتقل إلى باب السائق يمسحه، بقع الوحل اليابسة تتداعى،

يطلع اللون الأبيض مغبرا، بالماء سيتألق، بالأمس لم يغسل سيارة، كانت الأمطار تنزل من قرب مثقوبة، الشوارع لازالت موحلة، لو كنت صاحب السيارة ما غسلتها اليوم، يبتسم: ولن تحصل على شيء عندئذ!

آخ من الفلوس، سيارة رائعة، تنفتح أبوابها، لها سلك طالع، باللاسلكي تدار عن بعد، إلى الأمام، إلى الخلف، تلف يمينا وشمالا، تصدر أصواتا، وتزمر.. سيارة حقيقية بلون السماء الصافية، ما أحلى السماء حين تصفو، سأل البائع، ثمنها عشرة دنانير كاملة.. لو يغسل خمس سيارات يوميا لو وفر قليلا واشترى السيارة بعد أسبوعين على الأقل، شرط أن تبقى السماء بلا مطر.

امسح أكثر تدفأ أكثر، ذات مرة لحق بزملائه آخر النهار، وجدهم جالسين يصغون لـ (عبيد) شاب طويل عريض يقال إنه مطرود من جميع الأعمال، عبيد يحدثهم عن استغلال أصحاب السيارات لهم، يتمنى لو يتكاتفوا ويطالبوا بزيادة، ماذا يفعل الدينار في هذا اليوم؟، سرعان ما انسحب واحساس العار يجلله، آه لو عرفوا سره.. خائن!

الأم مسحت على رأسه بحنان وضمته، شم الرائحة الحبيبة الأليفة، اختنق بعبراته وقال بصوت مرتجف: آه لو يموت كل أصحاب السيارات، تبسمت الأم بصبر وقالت: وقتها، من

أيـن سـنأكل؟

بالأمس حاول من جانبه أن يرفع سعره، بتردد قال للرجل:

ــ أنظـر، هـا هـي سـيارتك تلمـع كمـا لـم تلمـع مـن قبـل، أعطنـي دينـارا كامـلا.

تطلـع إليـه الرجـل فـي بـرود، ركـب سـيارته وأدارهـا ومضـى، ركـض الصبـي وراءه، تراجـع، طالـب بالثمانمائـة فلسـا فحسـب، خفـف الرجـل مـن سـرعته، أنـزل النافـذة وأطـل بوجهـه: يـا أبـن الزانيـة، هـذا درس لـك، وبصـق وصـرت عجـلات سـيارته، والصبـي مبهـوت فـي مكانـه.

يفتـح بـاب السـيارة، يخلـب لبـه لـون السـجاد الوثيـر، يتلمـس بيـده المقاعـد، يغوصهـا فـي النعومـة الدافئـة الآسـرة، ينـزع حـذاءه المبتـل، يـدس قدمـه فـي وبـر السـجاد يدعكهـا، يسـري الـدفء الباهـر، يدعـك الواجهـة الداخليـة للسـيارة، يذكـر دعـك أمـه لباطـن قدميـه بحجـر أسـود وتلـك الدغدغـة التـي لـن تعـود، الأب مـات والأم مقعـدة.

امسح أكثر...

ــ لم نحن فقراء إلى هذا الحد، ولم هم أغنياء إلى ذلك الحد.

سـأل عبيـد، الـذي جلـس بجانبـه في الشـمس منتظـرا مثله سـيارة، عبيـد طويـل القامـة مفتـول العضـلات، يقـول إنـه لـم يسـتقر فـي

عمل لأنه يكره التسلط والظلم والتنافس بين العاملين، لذا حاول تنظيمهم ليتقاسموا الفرص في غسل السيارات، ولكنهم رفضوا، قال بعضهم: إنها مسألة حظ وشطارة.

عبيد أجابه: نحن فقراء إلى هذا الحد لأنهم أغنياء إلى ذلك الحد.

لم يفهم الصبي، فقال عبيد: أحفظ هذه العبارة الآن، وستفهمها عندما تكبر.

قال الصبي للأم: أنا أنتظر لكي أكبر، وأفهم حتى أرتاح.

تبسمت الأم بمرارة: يا ولدي لا أحد يرتاح عندما يفهم، كن مع الله، فهو الذي يعطي ويأخذ.

يحتل الصبي مكان السائق، يمسح بالقماش مقود السيارة ويحرك يديه عليها، كما لو كان يقود السيارة، يصدر بفمه أصواتا وتزمير، ينتبه لما يفعل فيخرج، يحضر المكنسة وينحني في المساحة ما بين المقعد والواجهة الداخلية، يكنس، تصطدم مكنسته بشيء فيتوقف، يبهت، محفظة جلدية هناك، بيد مرتعشة يسحبها، متخمة، تكاد تنفجر بالأوراق الخضراء والحمراء الكبيرة، لا يجسر على فتحها، ها هي تطل برؤوسها السحرية، يتلمسها غير مصدق، كل هذه النقود في محفظة واحدة!.

آه، سيجري إلى الأم، سيحتضنها، خذي هذه النقود وتعالجي، أصبحنا أغنياء.. أغنياء، لن تقول الأم هذا حرام، فهو لم يسرقها، عثر عليها مرمية وحسب، سيشتري تلك السيارة الرائعة، سيشتري سيارات كثيرة غيرها، سيشتري ملابس دافئة وسيعود للمدرسة.

ـ أنت يا ولد..

يفاجئه الصوت، يرفع رأسه، صاحب السيارة يتفرسه بحنق ووعيد، بحركة تلقائية يدفع بالمحفظة إلى ما تحت المقعد، كما لو كان يبعد عنه الشبهة، ينهض، ونظرات الرجل مستطلعة حادة، ينحني في المساحة الضيقة، حيث كان الصبي، بعد أن يلم أطراف ثوبه الأبيض، ويمسك باليد الأخرى عقاله، ينهض وينظر إلى الصبي، ينقض عليه يمسك بمعصمه، يصر بأسنانه:

ـ هاتها..

يرتعش الصبي، لكنه دون تدبر يقرر أن يتجاهل:

ـ ما هي يا سيدي؟.

ـ ماذا غير المحفظة يا ملعون.

ـ لكني لم أر محفظة.

تنـزل علـى صدغـه صفعـة مدويـة، يفقد توازنـه ويسـقط أرضـا، يصيـح بـه الرجـل:

ـ إيها اللص القذر.

يتراكـض زمـلاء الصبـي، يتجمـع المـارة، عبيـد يسـرع، فيعترضـه زميـلان ويوقفانـه، مركـز الشـرطة قريـب..

الرجل يسحب الصبي، يوقفه، يهزه ويشير:

ـ المحفظة أو الشرطة.

الصبـي يتماسـك، « الرجـل لا يبكـي» هكـذا يقـول زمـلاؤه، والمحفظـة فـي سـيارته، إذن لا تهمـة ضـده.

الرجـل يدفـع الصبـي أمامـه، يصفعـه علـى قفـاه مـرة، يركلـه بحنـق مـرة أخـرى.

ـ ستسلم المحفظة.. حتما ستسلمها.

****

ثبـت الضابـط نظراتـه فتـرة فـي عينـي الصبـي، المغرورقتيـن بالدمـوع، الـذي بـدا متماسـكا، ثـم كـرر سـؤاله لـه:

ـ أين أخفيت المحفظة؟.

هـز الصبـي رأسـه هـذه المـرة، لـو تكلـم سـيبكي، لـذا لـزم الصمـت وتجلـد.

التفت الضابط للرجل: هل فتشت السيارة جيدا؟.

لا زال الرجل ثائرا: إنها محفظة وليست أبرة.

الضابـط يقـرر تفتيـش السـيارة، يخرجـون جميعـا، يتجهـون للسـيارة، يقـوم شـرطيان بالبحـث، ينحنـي أحدهمـا فـي المسـاحة الضيقـة قـرب مقعـد السـائق، يحنـي رأسـه أكثـر حتـى يتوسـد أرضيـة السـيارة ويتطلـع تحـت المقعـد، يمـد يـده، يخـرج المحفظـة، يسـلمها للضابـط.

الضابـط يسـأل الرجـل إن كانـت هـي المحفظـة المعنيـة، الرجـل يهـز رأسـه.. فيعـودون للمركـز.

الصبـي يتنفـس الصعـداء، انتهـى كل شـيء، سـيعتذر لـه الرجـل، ربمـا حصـل علـى تعويـض عـن هـذا الأذى.

فـي المركـز، يسـأل الضابـط الرجـل عـن مجمـوع مـا فـي المحفظـة، يضطـرب الرجـل.

الضابط يسأله بعصبية:

ـ كيف إذن نعرف إن كان الصبي قد سرق منها شيئا أم لا.

يحدج الرجل الصبي بنظرة، الصبي يتوقع أن يقول الرجل: يكفي هذا، دعوه، لقد ظلمناه..

الرجل يستلم المحفظة ويبدأ في عد الأوراق النقدية فيها، مخالسا الصبي النظر.

الضابط لا ينتظر حتى ينهي الرجل عد نقوده، يأمر أحد الشرطة بتفتيش الصبي، يمد الشرطي يده ويخرج ما في جيوب الصبي: ثمانمائة فلس، سدادات زجاجات، سيارة صغيرة قديمة، قطعة بسكويت.

الضابط لا يكتفي، يشير للشرطي بإدخال الصبي لغرفة مجاورة، هناك ينزعون عنه كل ثيابه.

يخرج الشرطي، يبلغ الضابط بأنه لم يحصل على شيء.

الضابط يسأل الرجل: هل نقودك كاملة؟.

ـ الله وحده يعلم ذلك.

ـ لكن ليس مع الصغير شيئا من نقودك.

يتأفف الرجل، يدخل محفظته في جيبه: هل تصدق هؤلاء الأوغاد؟.

ـ إنني مضطر لإطلاق سراحه.

الرجل يخرج دون أن يلتفت، الصبي يطل مزررا قميصه،

باحثا عن الرجل، يسرع إلى الخارج ثم يعود بعد لحظة: لقد ذهب دون أن يعطيني أجري.

الضابط يشير إلى حاجيات الصبي على المكتب:

ـ خذها وأحمد ربك لأنك تخرج من هنا.

الصبي في دهشة: لكني لم أسرق محفظته.

يغرس الضابط عينيه فيه: لكنك كنت تنوي أن تفعلها، لا تندس المحفظة من تلقاء نفسها بهذا الوضع تحت المقعد، أليس كذلك؟.

يوجم الصبي، ترتعد أطرافه وهو يدس حاجياته في جيوبه.

يضيف الضابط: والآن انتبه جيدا لما سأقوله، لا أريد أن أراك في موقف السيارات هذا، ولا في غيره بعد الآن، وعليك أن تركض إلى البيت، لا تتوقف مطلقا، فإن شرطيا سيكون وراءك وسأحبسك إن فعلت.. هيا أسرع، لا تتوقف..

ينطلق الصبي في الشارع، تاركا سطله ومزق من الأقمشة، راكضا عبر الأزقة، مطلقا العنان لدموعه التي حبسها طويلا، وشبح الشرطي المطارد يلهب ظهره.

وصل السوق، انسل من بين الزحام وصدم أكثر من مار

ولـم يتوقـف إلا عنـد واجهـة حانـوت اللعـب، تلفـت خلفـه باحثـا عـن الشـرطي فمـا وجـد، رفـع كـم قميصـه ومسـح دموعـه، وراح يتأمـل سـيارته الرائعـة قليـلا، ثـم حـول نظـره عنهـا، متنقـلا مـن لعبـة إلـى أخـرى، حتـى توقـف وثبـت نظراتـه هنـاك، فـي الزاويـة: أسـود كبيـر قـوي، فعـدل عـن رغبتـه فـي شـراء السـيارة، وقـرر أن يشـتري ذلـك الرشـاش.

• تـم نشـر هـذه القصـة فـي صيغتهـا الأولـى فـي مجلـة صبـاح الخيـر المصريـة تحـت عنـوان (اللـون الأغبـر) فـي أكتوبـر 1967 كمـا نشـرت فـي مجلـة البيـان الكويتيـة فـي ديسـمبر 1970، وأعيـد صياغتهـا فـي عـام 1985.

• قـام عيسـى الحمـر بإعـداد هـذه القصـة فـي سـيناريو سـهرة تلفزيونيـة لتلفزيـون البحريـن فـي الثمانينـات مـن القـرن الماضـي، مـن إخـراج فتحـي السـبع، تحـت عنـوان (فجـر يـوم آخـر).

الأرض ما زالت كروية

قصة تسجيلية

ـ المدينـة مزروعـة فـوق القبـور القديمـة تعصـف بهـا الزوابـع الرمليـة

ـ فـي أحـد بيـوت هـذه المدينـة، فـي غرفـة واسـعة مـن غرفـه، النوافـذ مغلقـة والمكيـف يلهـث نافثـا نسـماته الملطفـة.

ـ المذيعـة تطـل مـن شاشـة التلفزيـون، وقـد أراح الجالسـون ظهورهـم إلـى المسـاند أخيـرا، بعـد انشـداد للشاشـة دام أكثـر مـن سـاعتين، أجسـادهم آخـذة طريقهـا للاسـترخاء.

ـ المذيعـة تحيـي المشـاهدين وتعلـن عـن نشـرة الأخبـار التـي تأخـر اذاعتهـا عـن موعدهـا المعتـاد بسـبب النقـل، وعلـى الهـواء مباشـرة، لمبـاراة كـرة القـدم فـي طهـران بيـن منتخبـي الكويـت وإيـران علـى كأس بطولـة آسـيا فـي نسـختها السادسـة.

ـ خالـد الحربـان علـق علـى مشـاركة محطتـي أبـو ظبـي وقطـر فـي نقـل المبـاراة بأنهـا خطـوة طيبـة ومسـاندة إعلاميـة.

ـ المذيعـة: ...هـذا وقـد نفـى مصـدر حكومـي فـي دمشـق أن تكـون سـوريا قـد وافقـت علـى اتفـاق وقـف إطـلاق النـار وانسـحاب

القوات السورية من لبنان خلال عشرة أيام..

ـ الرجل الأول: هذا ما أراده العراق، أرأيتم؟.

ـ الرجل الثاني: وما دخل العراق في هذا؟.

الرجل الأول: ـ صائحا ـ ألم تر العنبري بعكازه، ورضا معرفي وحسين محمد وكيف كانت حالتهما، لم تكن مباراة العراق مع الكويت لعبا، كانت حربا.

ـ المذيعة: ... وقد أعلن راديو بيروت الناطق باسم القوى الوطنية المشتركة بأن القوات السورية هاجمت بالدبابات قاعدتين فلسطينيتين في دير العشائر وعيتا، فسقطت على أثر ذلك هاتان القاعدتان بعد معركة ضارية، و....

ـ أثناء عرض الخبر يعرض على الشاشة فيلم:

ـ دبابة سورية معطوبة يعتليها بعض المدنيين راسمين بأصابعهم إشارة النصر.

ـ أحد الرجال يحمل آر بي جي على كتفه ويطلق منه بعض القذائف في اتجاه ما.

ـ سيارة جيب مزودة بمدفع تسير في شوارع بيروت المدمرة الخالية، وتطلق بعض القذائف في اتجاه ما..

ـ يسود الصمت لحظة ثم يقول الرجل الثاني بتردد: لكن.. ما

كان للكويتيين أن يفقدوا أعصابهم هكذا ويضربوا..

ـ المذيعة:... وقد قامت القوات السورية بقصف...

ـ الرجل الثالث، مهدئا، يا جماعة الكويتيون لعبوا جيدا، لاحظتم كيف كان دفاعهم قويا، نظفوا منطقة مرماهم وحدوا من خطورة ....

المذيعة: ... ويقول المراقبون أن اجتياح القوات السورية لموقعين فلسطينيين قرب الحدود السورية...

ـ الرجل الأول: نعم.. لكن لولا طلعة الحارس الطرابلسي، فقد ضرب بيديه في منطقته، لكن الحكم تعجل بالقرار واحتسبها خارج المنطقة، حتى مراقب الخط القريب لم يرفع رايته..

ـ المذيعة: ... وصرح السيد رياض بأن اللجنة العسكرية التي ترافقه وضعت الدراسات اللازمة، لكنها بانتظار نتيجة الاتصالات السياسية...

ـ الرجل الأول: على أية حال، قدم الفريق الكويتي عرضا جيدا، لكن آخ.. لو فقط استطاع فيصل الدخيل أن يدخل الكرة التي أرسلها له فتحي كميل عرضية.

ـ المذيعة:... وقد أضاف السيد رياض بأنه من الضروري التفاهم مع الأخوة اللبنانيين الذين يرفضون قوة الأمن العربية..

ـ الرجـل الثانـي: كانـت هـذه فرصـة حقـا، لكـن كانـت لـدى اللاعـب الـذي أدخلـوه، رقـم 12، أكثـر مـن فرصـة.

ـ الرجل الثاني: تقصد محمد عبد الله.

ـ المذيعـة: ..... بـأن الهـدف مـن فرض هذه الرقابة الإسـرائيلية هـو الحيلولـة دون سـفر شـباب الضفـة الغربيـة القادريـن علـى حمـل السـلاح إلـى لبنـان للانضمـام إلـى حركـة المقاومـة..

ـ الرجـل الثالـث: ينبغـي ألا ننسـى أن فتحـي كميـل كان مراقبـا بإحـكام.

ـ الرجـل الثانـي: أخ لـوكان الفريـق الكويتـي كامـلا، لكـن مـاذا نقـول، إذا كان حتـى جاسـم يعقـوب لا يصـاب بالإنفلونـزا إلا فـي هـذا الوقـت!.

ـ الرجـل الأول: أرأيـت صـاروخ فتحـي كميـل، لـو كان هـذا الصـاروخ فـي المرمـي لكانـت النتيجـة تغيـرت.

ـ المذيعـة: ... إسـرائيل انتجـت صواريـخ جديـدة تطلـق مـن الجـو إلـى الأرض ، وقالـت الصحـف بـأن هـذه الصواريـخ وهـي مـن عيـار 82 مليمتـرا يمكـن اسـتخدامها بـرؤوس قابلـة للتفجيـر ضـد الدبابـات والأفـراد.

ـ الرجـل الثالـث: أي والله، كانـت النتيجـة التعـادل علـى الأقـل، ووقـت إضافـي نسـتمتع بـه، ويمكـن أن يتعـادل الفريقـان وتكـون

ضربـات الجـزاء، أنـا متأكـد بـأن الكويتييـن سـيفوزون بهـا.

ـ المذيعة: ... وأخيرا إليكم هذا الخبر الرياضي.

ـ ضجة فيما بين الجالسين..

ـ اثنـان مـن الجالسـين فـي نفـس واحـد: صـه، صـه، أنظـروا، أنظـروا.

ـ يقترب الجميع من الشاشة، يتحلقون حولها.

ـ مشهد للحارس الطرابلسي يضرب الكرة بكلتا يديه.

ـ يصـرخ أحدهـم: أنظـروا، إنـه فـي داخـل منطقتـه عندمـا ضـرب الكـرة بيده.

ـ مشـهد للحكـم وهـو يصفـر ويشـير إلـى ضربـة خطـأ مباشـرة خـارج منطقـة الجـزاء، اللاعبـون الكويتيـون يناقشـون الحكـم، ثـم يقفـون مكونيـن حائـط صـد بشـري أمـام جهـة مرماهـم، يقـف الطرابلسـي فـي الجهـة اليمنـى، يتقـدم اللاعـب الإيرانـي بروين، ويضـرب الكـرة لتدخـل المرمـى علـى يسـار الطرابلسـي مفاجـأة.

• نشرت في جريدة صدى الأسبوع البحرينية في يونيو 1976

عندما

عندمـا وعندمـا.. وعندمـا.. كالذبابـة الملحـة المملـة تحـط بعـد كل هشـة علـى ذات الموضـع.. تململـت فـي فراشـها وهـي تمسـك بالرسـالة.. تلملـم أطرافهـا علـى هيئـة مثلـث يذكرهـا بـ «السمبوسـة» التـي تلتهمهـا فـي فنـاء الفسـحة كل يـوم دراسـي مع رفيقاتهـا.. وتبـدأ تـأكل أطـراف الرسـالة بأناملهـا.. وتتجمـع كومـة الأطـراف فـي حضنهـا.. كل طـرف يولـد طرفـا آخـر.. هكـذا هـي الدنيـا.. ومـرت سـحابة شـرود.. ترقـب مشـوب بالفـزع الخفيـف كمـا يدغـدغ الدمـاغ خاطـر مجنـون.. تهـز رأسـها منكـرة إيـاه.

يـا للخواطـر المجنونـة كـم هـي كثيـرة التـوارد.. مـرة خطـر لهـا أن تبصـق فـي وجـه خطيبهـا أمـام والديـه.. لا.. لا.. إنهـا تحبـه.. ولكنهـا الخواطـر المجنونـة.. مجنونـة.. ارتجفـت شـفتاها.. وهمـت أن تفعلهـا.. واسـتحال لـون وجههـا أحمـرا.. صـاح بهـا خطيبهـا قلقـا:

ـ ما بك؟.. أتشكين شيئا؟!

هـزت رأسـها.. يـا لهـذه الـرأس التـي لا تمـل الاهتـزاز.. وهـز كل شـيء.

همـت مـرة أخـرى أن تقـول لـه: إنهـا تكرهـه عندمـا يقـول

«عندما».. لأنها ذبابة ملحة مملة.. تميت فيها روعة الكلام.. تربط حركة قلبها بصخرة كبيرة.. تكبرها مرات.. تشل فيها روعة كل عفوية.. « عندما » حزام يخنق.. يقيم جدارا حجارته تستعصي على معاول الهدم..

هذه الرسالة الثالثة التي تمزقها.. والخطيب صار زوجا.. والبيت خال ممل.. قفص قضبانه مطروقة من « عندما».. قفزت من السرير.. ارتدت ملابسها على عجل مشطت شعرها.. اغلقت الباب خلفها بضجة.

على الشاطئ.. كانت تقذف بحذائها بعيدا وتدعوه أن يسير مثلها حافيا.. يكفيك أن تتقيد طوال مكوثك في المكتب هناك.. تلمس الأرض هنا.. تلمس كيف أن تكون الدنيا بلا قيد.. تغوص احدى قدميها في رمال البحر الخضراء.. ثم ترفعها وعليها كومة منها.. تذوب رويدا رويدا.. يلذ لها أن ترى ذوبان الرمال في المياه.. تعصف شعرها بيدها.. تحل شرائطه لينسرح على كتفيها.. تهز رأسها مرات ومرات.. الدم يجب أن يسري في عروقي.. كفاني جمودا.. وتنهيدة طويلة ونظرة إلى الأفق المخضب باحمرار الغروب.

يقف مبهوتا يتأملها.. ماذا تزوجت أنا؟.. ماذا فعلت؟.. وينحني ليحل رباط حذائه.. يخلع جواربه ويهز رأسه.. يدس قدميه في الرمل بلا حياة.. يتأفف.. يعود وينحني ليلبس ما خلع..

كانت تقفز الدرجات نازلة.. لكنها توقفت فجأة.. ارتسمت على شفتيها ابتسامة.. هزت رأسها كعادتها.. لقد اقفلت الباب على المفتاح.. إنها تفعل ذلك غالبا.. لذا تركت مفتاحا آخر في بيت والديه.

مع قلة الأمطار هنا.. فإنه حينما تعزف زخاتها على الأرض.. ترقص في قلبها أحاسيس النشوة والانبهار.. تصعد إلى السطح.. تنشر شعرها وتدعوه إلى الاغتسال..

تضحك:

ـ جدتي كانت تقول لي دائما.. المطر يطيل الشعر.

تضحك لقلق زوجها وخوفه من اصابتها بالزكام.. لا أمنع نفسي هذه المتعة.. يقول لي: لم لا تتمتعي برؤيته من خلال زجاج النافذة؟.. إنه لمنظر رائع.. لا أدري كيف يتذوق هذا الرجل متع الطبيعة من وراء الزجاج!.

استقلت سيارتها.. أدارت محركها.. وسارت ببطء يعبث بوجهها وشعرها هواء المساء الرطب.. وتدندن بأغنية حب حزينة.

وتشرق الشمس مرة أخرى.. تعاود مرة ثالثة وهي مازالت تنتظر مكالمة هاتفية منه.. لقد وعدها.. وعودها أن يفي بوعده متى وعد.. وبدأ قلبها ينضح الشوق المغمس بالقلق.. يحيله

سياجا ملتهبا.. إنها لتشعر أن هذا قلبها.. وإنه هنا في صدرها يتوهج.. وتعلم أن اسياخ اللهفة تنغرز بوطأة الساعات.. إنها تفهم هذا.. وتهز رأسها.. على أي شاطئ هو الآن يسير.. وفي رمال أي بحر يغرس أصابع قدمه كما عودته هنا.. أوه ولكنه يحب المكاتب.. ويدوس بحذائه الضيق السجاد الناعم.

النور الأحمر يوقف عجلات سيرها الوئيد.. تتململ من الانتظار.. تفتح الصندوق الصغير أمامها.. تخرج منه باقة ياسمين أصفر بياضه.. تشمها.. إنها ذكرى الليلة الأخيرة.. تعيدها مع انبثاق اللون الأخضر.

كان يريد الزواج سريعا.. كانت تريد اكمال دراستها في الخارج.. لم تكملين دراستك.. لتضيعي علينا سنوات أخرى.. ما تفعلين بالشهادة.. كل شيء متوفر عندنا.. وأمامك الخيار بيني وبين دراستك.

وبكل اتكالية جدتي قبلته.. ورفضت ــ رغم تشجيع أخي ـ أن اتنفس بضع نسمات خارج أسوار المحتوم.

وعندما.. وعندما وعندما.. وكانت في قلبي لوعة الذي يخسر أحد العزيزين ليبقي على الآخر.. في حين أن « عندما » بدأت ترسم لي حياتي المقبلة.

يا للملعون.. ألأنني امرأة يقفز أمام سيارتي هكذا.. وعادت فأرخت يديها على المقود مرة أخرى.. وبدأت تنقر بأصابعها

عليه بعصبية.. محاولة تخفيف توترها لهذا التوقف المفاجئ.

إن آخر « عندما » قالها في رسالته الأخيرة.. « عندما أعود بعد هذه الغيبة الطويلة سأحاول تعويضك عن كل هذا الفراق.. سأسافر بك بعيدا.. حيث لا التزامات العمل.. ولا مشاغبات الأصدقاء.. سوف لن تكوني ــ كما قلت في رسالتك الاخيرة لي ــ كما مهملا في حياتي.. وسوف تتأكدي ذلك.. عندما أعود..» إنك لم تعودني على مثل هذا الفراق.. والأخبار عنك مقطوعة كأنما لست على أرض.. والجميع مطبقون أفواههم كأنما يخشون أن تفلت من بين الشفاه ما يخشون.

وعندما كانت تخطو الخطوات القليلة في الردهة.. وصلها صوت أبيه غاضبا يخاطب زوجته:

ــ كيف يفعلها.. كيف يمكن أن أخبر هذه البائسة التي تنتظر.. بأنه سيعود مع.. أخرى!؟

• نشرت في جريدة الأضواء البحرينية، أغسطس 1970

شبهة

تطلع في وجه المدير حائرا، فهو لم يستوعب مغزى السؤال:

ـ أغلقت الباب أم لم تغلقه؟!

أين هو الخطأ في ذلك، ما الذي يستدعي اخراجه من الحصة ووقوفه كمن أجرم، وهو ما وقف مثل هذا الموقف من قبل، لكن المدير أصر مجدداً الحصول عن الإجابة.

تماسك التلميذ الصغير، ذو الأعوام العشر، وبدلا أن يجيب، تساءل:

ـ لو تسمح، سيدي المدير، فأنا لم أفهم السؤال حتى أجيب عنه.

بصوت حاد النبرة مكبوت الانفعال، رد المدير:

ـ سؤالي واضح: هل أغلقت الباب عليك وعلى محمد في غرفتك بالأمس، حين كان في زيارتكم، أم لا؟

رانت لحظة صمت متوتر قبل أن يستجمع الصغير شجاعته ويسأل مجددا:

ـ ما الفرق بين أن أغلق الباب أو لم أغلقه.. مـ ....

قاطعه المدير بجفاء:

ــ أنـا مـن يسـأل لا أنـت، فقـط أجـب وبتحديـد، أغلقـت البـاب أم لـم تغلقـه؟.

تطلـع الصغيـر فـي وجـه المديـر، يقـال إن إحـدى عينيـه مـن زجـاج، وأن التلاميـذ الكبـار يعرفـون أي العينيـن هـي، لـذا فهـم يتصرفـون كمـا يحلـو لهـم حيـن يكونـون فـي الجانـب الآمـن فـي حضـوره!، تطلـع وحـاول أن يخمـن، ولكـن قتامـة النظـارة لـم تسـعفه، امـا المديـر فقـد ضـاق بصمـت الصغيـر فأطلـق (هـــا) متوعـدة تسـتحثه.

ــ صدقنـي سـيدي، لا أتذكـر، أعنـي لـم يـدر ببالـي أن يسـألني أحـد عـن ذلـك.

تململ المديـر مـن مراوغـة هـذا التلميـذ، رغـم إعجابـه بتفوقـه، فهـو يخـاف ذكاءه، إنـه يخـاف ذكاء التلاميـذ عمومـا، لـذا توقـع أن تكـون مهمتـه صعبـة منـذ جـاء والـده فـي الصبـاح وطلـب اسـتقصاء مـدى العلاقـة بيـن ولـده وبيـن محمـد، التلميـذ الآخـر الـذي يخـاف ذكاءه أيضـا.

لذا قرر أن يجرح القشرة ويغوص بالمشرط:

ــ ما مدى علاقتك بمحمد؟.

ــ صديقي.

ـ أعني هل بينكما شيء؟.

ـ شيء؟!.

ـ نعم، يعني أنك معجب به أو هو معجب بك.. (وطوح يديه في الهواء بدون معنى).

ـ بالطبع أنا أحبه، أليس صديقي؟.

أجل أنه يحبه، مولع بوجهه الصبوح الذي لا يشبهه وجه، ولا يدانيه في لطافة حضوره أحد، لا زال يتذكر الدهشة التي ارتسمت على محيا التلاميذ حين عبر بعفوية عن فرحته بعودته بعد غيابه لوعكة صحية، دام أياما لم يهنأ فيها ولم يستوعب درسا، فاحتضنه وقبل وجنتيه بلهفة وشوق، مما أثار اللغط بين الصبية وعلا صراخهم وصفيرهم، فأربك محمدا!.

تأفف المدير، تأمل وجه التلميذ، الذي بدأ يتمالك نفسه بعد أن لاحظ عجز المدير وحيرته،

قرر المدير أن يحسم أمره:

ـ أسمع.. لا أريد أن أراك تماشي محمدا من الآن فصاعدا.. تجنبه .. سوف أنقله لفصل آخر.

احتج الصغير، خنقته العبرة، قاومها:

ـ ولكن سيدي المدير، لماذا؟.

صاح المدير بغضب العاجز:

ـ لا تسألني أنا، هذه مشيئة والدك، ومشيئة والد محمد.

****

لم يذهب لفصله كما طلب منه المدير، بل رابط عند بابه الذي غيب محمدا بعده، صمم أن ينتظر خروجه، وهو يستعيد تفاصيل تلك اللحظة الهائئة التي انفرد فيها بمن لا يتحدث بإعجاب إلا عنه مع أبيه وأمه وأخته الوحيدة، أغلق الباب وجلسا متقابلين كما كان يتمنى منذ فترة، أن يكون محمد له وحده لا يشاركه فيه آخر، يتملى ملامحه المحببة له، عاودته مشاعر الغبطة التي غمرته حينها، وكاد ينسى ما هو فيه.

شعر بأن الوقت يمر ثقيلا وهو يتطلع لباب الإدارة، ينتظر بفارغ الصبر خروج صديقه، لعله يحمل معه جديدا، لقد قرر أن يرفض قرار المدير ومشيئة والده، تنامى احساسه بالقدرة على تحدي كل من المدير ووالده، شعر بأنه يستطيع ان يتمسك بعلاقته بمحمد، وإنهما سيكونان بطلي المدرسة، سيدعو التلاميذ لمساندتهما في علاقتهما، لإعلان الإضراب والخروج في مظاهرة، ربما أدت إلى إيقاف المدير المتعسف.. ربما..

كان منتشيا بخواطره حين أطل محمد من باب مكتب المدير، بوجه مكفهر، أسرع إليه، امسكه من كتفيه وقال له:

ـ ها.. محمد.. لقد واجهته أنا قبلك..

ولكن إمارات وجه محمد أخرسته، كان عيناه وجلتين تجولان اضطرابا في الأنحاء، نظراته تهرب بعيدا لكيلا تلتقي بعيني الصغير، وتمتمات لا تسمع على الشفاه المضطربة، تخلص منه وهرول للفصل، ومن خلفه هرول الصغير ليشاهده يلم كراريسه في حقيبته ويخرج قاصدا صفا آخر.

****

في الانصراف، انتظر الصغير عند بوابة المدرسة، حتى لاح محمد فاقتنصه بين الخارجين، مشى إلى جواره صامتا لفترة، ثم استدار إليه وواجهه:

ـ محمد، عليك أن تقول شيئا.

قال محمد بصوت واهن:

ـ اجتماعنا خطأ.. علاقتنا خطأ.. وعلينا أن نفترق من الآن فصاعدا.

صرخ الصغير حانقا:

ـ أين هو الخطأ ؟.. ماذا فعلنا؟.

أجاب من كان صديقه:

ـ قال لي المدير: غدا عندما نكبر، سنعرف لم كانت صداقتنا خطأً!.

• 1969 ، غير منشورة

صدر للمؤلف

في مجال القصة:

1. (الحلم وجوه أخرى) - في عام 1975- نشر وتوزيع دار الآداب في بيروت ودار الغد في البحرين.

2. (فيزنار) - في عام 1985 - نشر وتوزيع دار الفارابي ببيروت والمكتبة الوطنية في البحرين.

في مجال المسرح:

1. (اللعبة) - في عام 1981- ضمن السلسلة المسرحية الصادرة عن وزارة الأعلام في العراق.

2. (هواجس العمر) ضمن كتاب (5 تجارب مسرحية من البحرين) - في عام 2000 - إصدار إدارة الثقافة والفنون في دولة البحرين والمؤسسة العربية في بيروت.

في مجال مسرح الأطفال:

1. (العفريت ووطن الطائر) - في عام 1983 - مسرحيتان في كتاب - منشورات اتحاد الكتاب العرب في دمشق.

2. (النحلة والأسد) - في عام 1989 - وزارة الأعلام بدولة البحرين.

3. (وديعة الأمل - 4نصوص مسرحية للأطفال) في عام 2013- اصدار الهيئة العربية للمسرح في الشارقة.

في مجال القصة للأطفال:

من أوائل من نشرت له العديد من القصص في البحرين وخارجها.

عنوان التواصل khalaf48@yahoo.com

الفهرس

- المقدمة 5
- أقرب من صحوة .. أبعد عن نزوة 7
- سيجارة غير مشتعلة 29
- توجس 35
- التحديق في الوجه المألوف بغرابة 39
- مجرد محاولة لقول شيء بالمناسبة 57
- حين يحين الحين 73
- خواطر جسد 79
- الرغبة تحت شمس ترتعش! 87
- الأرض ما زالت كروية 97
- عندما 103
- شبهة 109
- صدر للمؤلف 115